

المقابر

بين بلاد الاراميين والفينيقيين (١)

وادي العجم واقليم البلان

يفزع المشتغلون بمقولهم الى القلاة يروضون افكارهم كلما آتوا من نفوسهم مللاً وتعباً رجاء ان يخفف عنهم ما نالهم فيعادون اعمالهم بنشاط أكثر ومغاضاة اوفى واوفر . وعلى هذه السنة جرى كاتب هذه السطور فركب العربى من دمشق بعد ظهر الخميس في ١٣ ربيع الثاني ١٣٢٧ (١٣ نيسان غربي ١٩١١) قاصداً الى قطننا مركز قضاء وادي العجم فبتنا فيه ليلتنا على مثل ما كان النهار سحبا عطالة ورياحاً نكباء وزعازع واعاصير وكنا نود لو نخلص من الغد الى راشيا ولكن حالت الثلوج ابتراكمة في سفوح جبل الشيخ دون الامنية فمقدنا العزم على زيارة القنيطرة حاضرة الجولان اولاً ثم نقصد الى جبل عامل ونجمل راشيا (٢) خاتمة المطاف

وعلى هذا ركبنا خيلاً من الغد قاصدين اقليم البلان ومنه الى الجولان في يوم انقطعت امطاره ولم تنقطع رياحه وذارياته وبعد ان مرنا ساعتين في شعاب وهضاب بلغنا قرية بيتما وتخطيناها لنجتاز نهرها الى كفر حور ولكن عجز حمار مكارنا عن قطع المخاضة اذ لا جسر يعبر عليه بين القريتين وصادف ان كانت عاصرات ثلوج جبل (١) نشرنا الثاني مقالات التالية في جريدتنا فنبس اولاً وقداعدنا فيها النظر ثانية

الآن ونشرناها هنا لتحفظ

(٢) يرى بعضهم ان ترمم « ريشيا » لا « راشيا » وهذا الزعم اقرب الى الاصل السرياني ويقولون ريشيا الوادي نسبة لوادي سكين كما يقال ريشيا القريته بالقرب من حاصبيا « ريشيا الفخار »

الشيخ قد كثرت عصر ذلك اليوم فاضطررنا الحال ان نعود ادرجتنا الى بيتنا نقفي فيها الليل عسى ان تخف مياه نهرها من الغد فتألف السير

ومعنى بيتنا بالسربانية بيت اليتيم وقيل بيت الماء ولكل مسمى من اسمه نصيب وهكذا فعلنا ونحن نضحك من حكم الاقدار في هذه المديار وكيف ادى ماء النهر وعدم الجسر الى تخلفنا ليلة في الطريق . نعم اسنضحكنا لان حمار المكاري لم يستطع العبور وانا ورفيقي كيف نسير وحدنا ونهتدي الى ما نقصده من البلاد بدون دليل فقلنا: يا سبحان الله كم من حمار يقطر وراءه بشراً فيؤخرهم عن السير هذا الحال في حمار حيوان فكيف اذا كانت حمراً كثيرة في صور بشرية

ليس في هذا الوادي والاقليم يستحق الذكر من الامور التاريخية والاثريّة فقد سكت التاريخ عن ذكر حالته في الازمان القديمة كما سكت عن كثير من اقاليم الشام فوادي المعجم واقليم البلان ليس لهما ذكر في تواريخ القرون الوسطى اللهم الا ما كان من ذكر نهر وادي المعجم الاعظم المسمى بنهر الاعوج والمعروف بسفح التوراة بدم فرفر^(١) او فرفار او فرفور

وهذا النهر يتكون من عدة عيون ومسابيل تنبعث من سفوح جبل الشيخ منها عين في بيت جن ومن ينبوع آخر اسمه المنج وعدم الشرايط وادي الغمامية وعين الطموسية وعين الطيبة وهما اجود تلك العيون تحسن ماءه كما يحسن ماء عين الفيجة مياه نهر بردى باختلاطه بها وهكذا تجري اليه عشرات من العيون ومنها نهر بيتنا وعيون عرنة ويسقي نهر الاعوج او فرفر كثيراً من قرى وادي المعجم القحطاني واهم قرى هذا القضاء قطننا والجديدة وعرطوز وجونية وكوكب والمعلمية وداريا وصحنايا والاشرفية والخيارية وسبينة وسبينات وبلاس والقدم وكفرسوسة والمزة والماجدية وذالنون وام القصور والدير علي والكسوة وزاكية وزغير وحرجلة والمقلبية وشورى والطيبة والدرخبة والبوضية ومرجانة والحسينية والاشرفية والعباسة وحوش التفور وحوش مرانة وبراقي وخان الشيخ وسبع وكناكر ودير ماكر وشقحب وبويفسان وماعص وسبينة والدثانية والمناجي والزريقية والمبارية وغيرها من الاحواش والمزارع

اما وادي المعجم الفوقاني المعروف باقليم البلان فهو قرى سفوح جبل الشيخ او ما يقرب منها وطول هذا الاقليم نحو عشر ساعات وعرضه نحو سبع ساعات يحده جنوباً الجولان وشمالاً وادي

العجم والدياس وراشيا وشرق وادي العجم التختاني أيضاً وغرباً إلى الجنوب حاصبيا وام قراء
عيسم وهي اول الاقليم على نحو ساعيتين من قطننا ومن قراء عين البرج والقلمة وبيتيا
وكفر حور وبيت ساير وحينة وبقعسم وعين الشعرة وريمة وعرنة ودربل وبيت جن
وحرنة وخربة السوداء وحضر ومحيطة وترنجة وجبانا الخشب ومقرصة وحلس وبرقش
وكفر قوق وصوجة ورضوان وامباودرين والبيجاج والصورة ورأس العين ورخلة وبعفور
واقليم البلان متوسط بزراعتهم كثرة ثلوج، وجليده واهويته على العكس في
وادي العجم التختاني فان تربته اخصب وتجد فيها الاشجار المثمرة اكثر، وفي بعض
قراء الى اليوم عاديات ونوايس تدل على عمران قديم زاخر وان الآراميين والرومانيين
واليونانيين سكنوا هذه البلاد فعمروها ولا تزال اسماء بعض بلاد الانليم سريانية
الى اليوم وقد خلفوا فيها اثاراً صبرت على كرا الليل والار وما برحت تنم عن حضارة وذلك مثل
آثار بيتيا وكفر حور وكفر قوق مبيتيا وقد شاهدنا في ارض كفر حور اربعة ازارس عظيمة
نقرت في الصخر على صورة هائلة تدل على انها مدائن اغنياء وامراء لا مقابر فلاحين
فقراء وفي كل قرية نوايس لا تفل عن هذه بمكانتها وقد طمست الايام معالمها
فلم يعلم اسم بانيتها

والنفوس قليلة سفي هذين اقليمين (وادي العجم واقليم البلان) لا تزيد في
الاحصاء الرسمي عن خمسة عشر الف نسمة هذا القرى الملحقة بسمل دمشق مثل
الزة وكفر سوسة وداريا وصحنايا والاشرفية وبلاس ومع ان البلاد تؤوي مائتي الف
واكثر ترعى الهجرة ايضا الى اميركا تفل نفوسها سنة عن سنة وسكان هذه البلاد
اخلاط بمذاهبهم فيهم المسلمون السنة ومسيحيون روم وكاثوليك وبرتسنت ودرور
والدروز اكثرهم مضاء واندما على العمل ويليهم المسيحيون ثم المسلمون فكان
هو لا يكفهم من المفارح ان تكون حكومتهم منهم ولذلك جعلوا اعتمادهم عليها
وكان عليهم ان يعملوا على تماسكهم ومضائهم كاقبل جيرانهم في اعتمادهم على انفسهم
فقرن النزلة غداة اليوم في بيتيا وشادينا الصديق الشيخ عبد الرحيم البابلي يروى
في حديقه بيت ابي حمد قول الشاعر المنطبق على ما نحن فيه من جمال الموقع
وطرب النفس بالطبيعة .

الروض مقبل الشبهة موق
نثر الندی فيه لآلي عقده

الفضل يكاد غضارة بتدفق
فالزهر منه متوج وممنطق

وارتفاع من مر التسميم به ضحى
ومرى شعاع الشمس فيه نالتي
والفصن مياس القوام كذا
والطير ينطق معرباً عن شجوه
غرداً يغني للفصون فينثني
والنهر بالاراح وهو مسلسل
فندت كائن نوره لثفتني
منها ومنه سنا شمس تشرق
نشوان يصبح بانفسيم يغبق
فيكاد يفهم عنه ذلك المنطق
طرباً جيوب الظل منه تشقق
لا يستطيع الرقص ظل يصفق

كان اليوم الثالث معتل التسميم صافي الاديهم فحمدنا الدير حتى وصلنا الى قرية جبلتنا الخشب
آخر عمل وادي العجم فبنينا في بيت مبرود على ان تعاد السير من الغد ولكن عاد الجو
فاضطرب وهبت الريح زعنماً وكثر تهطل الامطار والبرد حتى ذكرنا نيسان بكانون
ثم زاد قلق الطبيعة حتى استيقظنا صباح اليوم الثاني وجبل الشيخ قد لبس حلقة انصع
بياضاً من التي كان مكتسباً بها في اليوم الماضي وركبنا الى القنيطرة ورفيقنا البالي
يردد قول العفيف التمساني

رياض بكاه المزن فهي بواسم
واودعت الانواء فيهن سرها
بيت الندى في افقها وهو نائر
كان الافاعي والشقيق ثقابلا
كان بها للزجس الغض اعياناً
كان ظلال القصب فوق غدورها
كان غنام الورق الحان معبد
كان نثار الشمس تحت غصونها
كان ثماراً في غصون توست
كان القطوف الدانيات مواهب
وناحت لغير الحزن فيها الحمام
فتمت عليهم من الرياح النواسم
وبضحي على اجيادها وهو ناظم
خدود جلاهن العبا ومبامم
تلبه منها البعض والبعض نائم
اذا اضطربت تحت الرياح اراقم
اذا رقصت تلك القدود النواجم
دناثير في وقت ووقت دراهم
لمارض خفاق التسميم تمام
ففي كل غصن ماس في الدوح خاتم

الجولان

الجولان كيرة عناية من كور الشام تعد من بلاد حوران يحدها من الشرق نهر
العلان ومن الغرب بحيرة طبرية والاردن الاهلي (الرقاد) ويفصلها نهر اليرموك^(١)

(١) سماه بلين هيروماكس (Hieromax) وفي التلمود بارموش وسماه العرب

الشريعة او شريعة المناذرة نسبة لقبيلة المناذرة التي نزلت فيه

عن بلاد عجلون من الجنوب ونهر الحاصباني بالقرب من بازباس وجبل الشيخ من الشمال وتسمى هذه المقاطعة بالعبرانية كولان (Golan) كان يطلق هذا الاسم أولاً على مدينة اسرائيلية مقدسة من بلاد باشان نزلها قبيلة منسى وهي اليوم مدينة صحرا الجولان بعينها قرية على كيلومترين شرقي نهر العلان وعلى سبعة كيلومترات من الشمال والشمال الغربي من زيزون ولا يزال فيها بعض آثار وخرائب منها برج مربع علوه ١٥ متراً وبالقرب منه بناء جميل يظن انه كان كنيسة وقد اقام فيها ادمون روتشيلد الاسرائيلي الفني الشهير مستعمرة الاسرائيليين

وكانت الجولان (Gaulanitiide) تمتد الى شريعة المناذرة وتعد من بلاد بئرا او العربية الصحراوية ومن جملة مملكة فيليبس^(١) والبلاد الجولان ذكر قليل في تاريخ العرب نزلها الحرث الاعرج الغساني^(٢) كما كان الحرث بن ابي شمر بن الايهم مملوكاً بالاردن ولعل عملاء الآثار يوفقون في المستقبل الى الظفر بعاديات لغسان في الجولان كما ظفروا بقليل منها في حوران ولا سيما في جبل بني هلال^(٣) الذي كان يعرف قديماً بجبل الربان لكثرة مياهه ويعرف اليوم بجبل حوران او جبل الدروز لان الفسامة ملكوا هذه الديار ووسطوا سلطانهم ايضاً على دمشق قبل الاسلام واقتنع الجولان شرحبيل ابن حسنة وورد ذكرها في شعر حسان بن ثابت بقوله:

قد عفا جاسم الى بيت راس فالجواني فغارث الجولان
ووردت في شعر ابي نواس في مدحه الخصيب بن عبد الحميد العجمي المرادي امير مصر من قصيدة يصف بها طريقه من بغداد الى مصر

رحلن باما من عقر قوف وقديدا	من الصبح مفتوق الاديم شهير
فما نجدت بالماء حتى رأيتما	مع الشمس سيف عيني اباع تفور
وغمرن من ماء النقيب بشرية	وقد حان من ديك الصباح زمير
ووافين اشراقاً كثنائس تدمر	وهن الى رعن المداخن صور
يومن اهل الغوامشين كائنما	لما عند اهل الغوطشين ثور
واصممن بالجولان برضخن صغرها	ولم يبق من اجراحهن شطور
وقاسين ليلاً دون ريسان لم يكده	سنا صبحه للفاطرين بنير

(١) دليل فلسطين وسورية ايدكر ودليل الارض المقدسة لمستمرات

(٢) تاريخ ابن واضح (٣) نفوس البلدان لابي الفدا

واصبح قد فوزن من نهر فطرس وعن البيت المقدس زور
طوالب بالركبان غرة هاشم وفي الغرما من حاجين شقور
ولماتت فسطاط مصر اجارها على ركبها ان لا تزال بحير

قاعدة الجولان اليوم القنيطرة وكانت صغيرة جداً قبل ان ينزلها مهاجرة الجراكسة والداعستانين منذ زهاء ثلاثين سنة وقد كانت في القرون الوسطى قبل عهد الدولة العثمانية قاعدة البلاد (١) قرية خان « ولا ندري اخن ارنبية او خان الدور » تارة والشقراء اخرى والجولان اليوم او قضاء القنيطرة هو ثلاث نواح ناعية الشقراء وهي عبارة عن مجدل شمس وجبان الزيت وبانياس وعين قنية وعين فيت وزعورة ومنفور الشباعنة والفجر وخان الدور ومزارع الفضل هذا ما كان منها الى جبل الشيخ اقرب. وناحية الجولان وفيها قرى الجركس واهمها المنصورة وعين الزيران والعرمان والحشية وعشيرة الزركان ومزارعها وعشيرة الموادجة والمخاترة وجبا وخان ارنبية وعشيرة الويسية والقصيرين والجمعاتين والدياب وارضى البطيحة ومزارعها ونعيمات الطاعة وهذه المشائر مزارع وقرى تفلح فيها وتزرع واغلب نزولها في المضارب ومساكنهم للفلاحين وايواء الماشية فقط. والناحية الثالثة ناحية الزوبة واهم قرأها فيق والعال وكفر الما والشجرة وكوبة وبيت الرزا ومعربة والمناظرة

وبقدروث اليوم مزارع الجولان وقراء كلها بنحو مائة وستين مزرعة وقرية فيها اراض جيدة في الجملة وتعود حبوبها في الاكثر في السنين التي ثقل امطارها اما في سني الري الكثير فانها تفرق فينا تشكو الاقاليم المجاورة الشرق ثمن الجولان من الفرق ولذلك تصلح اراضيها العربية الماشية كثيراً ولا تغالي اذا قلنا انها الاقليم الوحيد الذي يصلح لهذا الغرض كما يصلح « جقور اووه » اي سهل الهوات في ولاية اطنة من بلاد الاناضول او الروم كما كان يسميها العرب

وهمة الفلاح في الجولان ضعيفة لانه في الاكثر لا يملك ارضاً له يضع سنين ليتوفر على زراعتها بل ان الاراضي مشاعة بين اهل البلد الواحد فينا يزرع هذه القطعة تارة من قابل تنزع منه وتعطى لغيره وهكذا لا يشاهد الرقي في الزراعة الا في مزارع الجراكسة اذا اختص كل فرد منهم باراض تناسب حاله وشانه فاصلحها ما ساعدته مادته وقوته وخدمها على مثل ما نخدم الزراعة في البلاد التي هاجر منها اي بلاد الروس

اليوم وبني البهوت بالحجر والقرميد وغرس الاشجار وعاش في الجملة احسن من عبثة سكان البلاد الاصليين خصوصاً وان المهاجرين يغلب عليهم الاقتصاد بحيث لا تعهد عندهم المضافات المفترقة الابواب لكل قادم كما هي عند سكان هذه الديار من العرب واكثرهم يعرفون دخلهم وخرجهم . ولو سار الجولانيون الاصليون على هذه الطريقة لحدوا سيرهم ولما افتقر الاغنياء منهم باسرافهم اسرافاً لا يعد من الكرم سبباً شاملاً وبعبارة اوضح لا بعد فضيلة (١)

وبلاد الجولان متسعة الرقعة بقل سكانها بالنسبة لعظم بقعتها ويكفي ان اراضي الفضل وهي من جملة عمل هذه البلاد تمتد من المنصورة قرب القنيطرة جنوباً حتى بانياس شمالاً وشرقاً الى جبالنا الخشب وغيرها الى الحولة ولا يطوفها الاكباد بالسير المعتدل سبباً اقل من ثلاثة ايام . غلاتها جيدة وفيها بعض الاشجار المثمرة والكروم وكثير من الغابات اجتزأتها من القرب من مركز القضاء الى ارض بانياس في زهاء اربع ساعات فأينما فيها صورة مصغرة من مناخ سورية رأينا فيها الربيع والصيف او الصيف والشتاء في آن واحد . واميرها وهو اليوم محمود الفاعور مالك هذه الاراضي كلها اذا شتا في ارضه بالقرب من الحولة بشتو في حرارة كحرارة الربيع واذا اصطاف بصطاف في الارض النجدية واذا ارتبع يرتبع في واسط حيث بنى قصره على مثال قصور الاغنياء وهذا الامير حاكم مطلق سبباً عشرينه عرب الفضل المولفة من نحو ٥٠٠ بيت كما قال لي احد افرادها ولا يشاركه في ملكها سوى شيخ الموادجة وبعض التجارة وهم عبارة عن ١٨٠ بيتاً يملكون جزءاً صغيراً منها ومن عشائر الفضل المجاورة والربيع والفاعور ويجمعها كلها اسم الفضل وكلهم رحالة او متقلون ولكن رحلتهم في ارضهم لا يبعدونها الى القاصية كما يرحل عرب بني صخر والروالة مثلاً واميرهم يدفع ما على اراضيهم من الاعشار الحقيقية وجماعته معفون من الخدمة العسكرية ليسوا مع اميرهم كصاحب ارض مع فلاحيه على ما هي عليه الحال مثلاً في الغوطة والمرج وقلمون ووادي العجم والجولان يخدمون ارضه ويقاسمهم غلاتها على الخمس او الربع بل هو الحاكم المتحكم

(١) لو لم تكن في هذا القرن الذي يسميه الافرنج قرن النور لذكرنا ما ذكره الشيخ عبد الغني النابلسي الصوفي الاديب الدمشقي من افراد القرن الثاني عشر سبباً رحلاته الى الروم والقدس والحجاز فقدملاًها باختيار الدبائح التي نغرها له من نزل عليهم فاكل هنئاً مريضاً ولكن لكل قرن لسان خاص به وكل فتى يغني على قدر ما سقاه الساقى

في أموالهم ودمائهم واعراضهم يأخذ ما يشاء منه ويبتغى في وجوه مرافقه والتوسعة على ضيفائه . واهل الجولان مسلمون على الاكثر وايس فيها سوى ثلاث قرى في آخر عملها اسمها عين فيث وزعورة وعجر سكانها نصيرية

وسلطان العدل في هذه البلاد ضئيل بحيث لا يرى حتى بالحجر والمكبرة لغـ اذا اخلاق الاهلين على الاكثر ولان الحكومة لا تختار على الغالب لولاية اعمالها سوى من قلت كفاءتهم في الجلمة . قال لي احد فضلاء القنيطرة : لقد راقت - ير الحكومة في قضائنا منذ نحو ثلاثين سنة فلم ارها الا نقذف علينا باحط عمالها على الاغلب فاذا انفق ان تولى العمل الاكفاء المستقيمون لا تطول مدتهم فيفارقوننا ليخلفهم من لا يرجعون الى عقل في احكامهم ولا الى عدل في نظامهم هذا ما سمعته وحققته من مجموع حوادث نقلت لي اما المعارف فلا تجد لها في القضاء عيناً ولا اثرأ ويكفي بان يقال في وصف مدرستها الاميريتين ان الاولاد يضررون معلمهم ويعيشون بلحيته وعمامته ولكن مادامت ادارة المعارف تفضل من يعرف كمتين من التركيبة على الكفوء من المدرسين ممن لم يسعد الحظ بتعلمها من ابناء العرب ومادامت مقلة من رواتب المعلمين هيئات ان تجد احسن من هذه العابقة لتعليم ابناء البلاد وعندنا ان الجهل المطبق خير من هذا التعليم الناقص الذي لان الفلاح الامي لا يجد له مرتزقاً الا من ارضه وما شبعه اما الفلاح الذي تعلم هذا الاسلوب فتكثر نفسه عن الزراعة جهلاً منه وغروراً ولا يحسن عملاً اللهم الا اذا كان خيال درك او بواباً او حراساً

بين قوم هذا عالم انشأ صديقنا احمد حمدي افندي الداغستاني مطبعة في القنيطرة سماها مطبعة الجولان فحسب ان يخدونه من التوفيق ما خادن بعض قرى سورية او بليداتها التي انتفعت من نعمة الحرية في عهد الدستور فتفتحت مطابع وانشأت جرائد او مجلات ونجحت في عملها على الجلمة

الحولة

بقنا الليلة السادسة في بانياس آخر عمل الجولان وحقها ان تعد من الحولة اذا نظرنا الى تقسيمها الطبيعي وبانياس بالقرب من تل القاضي حيث ينبع نهر الاردن او مدينة دان القديمة وبها آثار مهمة للصليبيين وغيرهم من الاسلام . بالقرب منها حصن الصيبية (١) وهذا الحصن هو القلعة المشرقة عليها في رأس جبل وبينهما نحو نصف ساعة قالوا في

وصف بانثياس انها مدينة قديمة حصينة كثيرة الحدائق وهوأؤها وبني وتربها كذلك وبها مياه غزيرة وآثار اليونان قديمة وقال ابو القدا (١) بانثياس امم لبلدة صغيرة ذات اشجار محضات وغريها وانهار وهي على مرحلة ونصف من دمشق من جهة الغرب بميل إلى الجنوب والعصبة امم قلعها وهي من الحصون النبعة قال العزيزي ومدينة بانثياس في حلف جبل الثلج (جبل الشيخ) وهو مطل عليها والثلج على رأسه كالعمامة لا بعد من صيفاً ولا شتاء وقال ابن جبير (٢) في وصف بانثياس انها مدينة صغيرة ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر يغضي الى احد ابواب المدينة وله مصب تحت ارجاء وكانت بيد الافرنج فاسترجعها نور الدين ولها محرث واسع في بطحاء متصاة يشرف عليها حصن للافرنج يسمى هونين بينه وبين بانثياس مقدار ثلاثة فراسخ قال وعمالة تلك البطحاء بين الافرنج وبين المسلمين لم في ذلك حد يعرف يحد المقاسمة فهم يتشاطرون القلة على استواء ومواشيهم مختلطة ولا حيف يجري بينهم فيها

وخرائب بانثياس على ما انتابها من حوادث الايام ولا سيما الزلازل تدل على عظمة من استولوا عليها ومياهها غزيرة للغاية لتوفرت العناية باخراج الصخور والردوم من طريقها لتضاعفت كميتها ولما كانت نزل عن مياه بردى والافرنج كلام طويل في عمران هذه القرية الحاضرة اليوم والمدينة العظمى امم فقد قالوا ان اسمها مطابق للامم اليوناني (Taneeas) الذي كان يطلق على هذه المدينة والكورة باجمعها سميت بذلك لغارة اختعت بعبادة بان (Tan) وهي تحت منبع الاردن وقد انشأ فيها هيرودس معبداً على اسم اغسطس وانجز ابنه فيليبس بناء هذه المدينة وسمها فيسرية فيليبس تمييزاً لها عن قيسارية فلسطين وقد سمها هيرودس اغريبيا الثاني وسمها نيرونياس وهو اسم اطلق عليها مدة قليلة من الزمن وكان فيها منذ القرن السادس اسقفية تابعة للكرسي الانطاكي واستولى عليها الصليبيون لما فتحوا هذه البلاد هي وقلعة الصببية التي لم يبق اليوم منها سوى انقاضها وذلك سنة ١١٢٩ او ١١٣٠ م عند ما حاولوا فتح دمشق وقد قال احد شعرائها في وصف غارتهم

بشطي نهر داريا امور ما تواتينا
واقوام رأوا سفك الد ما في جلق دينا
انا مشا الف عديداً او يزيدونا

(١) تقويم البلدان (٢) في رحلته

فبعضهم من اندلس وبعض من فلسطين
ومن عكا ومن صور ومن صيدا وتبنيها
اذا ابصرتهم ابصر ت اقشوا ما بجانيها
تخالهم وقد ركبوا فطارها حراذينا
وبين خيامهم ضموا ١١ خنازير والغرابينا
ورايات وصلبانها على مسجد خاتونا

واستولى على بانياس تاج الدين بوري صاحب دمشق سنة ١١٣٢م واعيد الاستيلاء عليها سنة ١١٣٩ واستولى نور الدين على المدينة لا على القلعة سنة ١١٥٧ ثم انقذها بودوين الثالث احد ملوك الصليبيين وعاد نور الدين فاستولى عليها سنة ١١٦٥ ودك السلطان الممظم حصونها ومعاليها وذلك بعد ان استولى الفرنج على تلك القلعة من سنة ١١٣٩ الى ١١٦٤ واكثر ما فيها الى الآن من الكتابات العربية من القرن السابع والاطلال من قلعتها من اجل مناظر سورية لانها تشرف من جهة على قسم من بلاد الجولان وارض الحولة وبلاد الشقيف وبلاد الاردن

والحولة بحيرة قال بعضهم انها المعروفة في الكتب المقدسة بمياه ميروم (Merom) هكذا يسميها الرومان واما اليونان فيسمونها سمخونيتس واسمها عند العرب الحولة او الملاحة او بحر بانياس قال ابن فضل الله واما بلاد صفد فنحدها من القبلة الغور حيث جسر الصنبرة من وراء طبرية ومن شرق الملاحة الفاصلة بين بلاد الشقيف وبين حولة بانياس وفيهم من هذا ان الملاحة هي غير بحيرة الحولة وهي حوض من الماء على شكل زاوية الا قليلاً يجري منها الاردن عمقها من ٣ الى ٥ امتار وفيها طيور مائية كثيرة كالبط وخرى ويكاد لا يدخل اليها من جهة الشمال لكثرتها وكذلك لكثرة النبات المعروف بالبردي النبات على ضفافها ولا سيما الضفة الشمالية ويتألف من السهل في شمالي البحيرة حوض كبير منظم في الجملة عرضه نحو ساعتين ومعظم هذا الوادي العميق يحتوي على الاكثر على بطائح وتسوة الصحة هناك ولا سيما بعد جفاف قليل من تلك البطائح التي تغطيها عدة قرى

وحدود الحولة قبلة الطريق الفاصل من نعران الى جسر بنات يعقوب الى قطانة والتليل ومن الغرب الجاهونة والملاحة والخالصة ويمتد الى ايل القمح وشمالاً مزرعة المارية وجسر صريد المتصل بمزرعة حلنا والخروية ومغور الشباعنة وبانياس من

سفع جبل الشيخ وشرقاً عين فيث وخرربة السمن والمنقزة والغرابة والدردارة
هذا اجمال عن بلاد الحولة وقد ذكر المقدسي في القرن الرابع ان الافليم المتوسط
الهواء اوسط سورية من الشراة الى الحولة فانه بلد الحر والنبيل والموز والنخيل ولوجفت
الحولة على نحو ما يسعى بعضهم بتجفيفها وهو سهل مما كان لا حيث بها عشرات الالوف
من الدوغمات قابلة لزراعة البقول والخضر تكفي اهل سورية في فصول السنة الاربعة
بل سورية ومصر وغيرهما ولا سيما في فصل الشتاء لمساكن الحرارة الطبيعية في تلك
الاراضي وكثرة خصبها المريع وشمسها التي لا تكاد تغيب

كان شعاع الشمس في كل غدوة على ورق الاشجار اول طالع
دنابير في كف الاشل يضمها لقبض وتهوى من فروج الاصابع
فعمى ان تصح العزائم على هذا العمل فينفع في صحة السكان وثروتهم بل صحة
البلاد المجاورة وثروة سورية عامة وكل فيها من خيرات لو حسن الانفاع بها اكفينا
مؤونة الفقر والمهجرة

جبل عامل

لم اجد تحديداً صحيحاً في كتب العرب لهذا الجبل المسمى اليوم بمضيه ببلاد بشارة
او بلاد الشقيف او بلاد المتأولة (١) فقد قال ابو الفدا (٢) ان جبل عامله من الاماكن
المشهورة وهو يمتد في شرقي الساحل وجنوبه حتى يقرب من صور وعليه الشقيف
الذي استرجعه الملك الظاهر بدرس من ايدي الافرنج وكانت رعاياه في حكم
الافرنج وفي شرقيه وجنوبه جبل عوف «عجلون» وقال ايضا (٣) واما بنو عامله
فيهم ايضا من القبائل اليمانية التي خرجت الى الشام عند سيل العرم ونزلوا بالقرب
من دمشق في جبل هناك يعرف بجبل عامله فمن عامله عدي بن الرقاع الشاعر
قال في المشترك شقيف ارنون بين دمشق والساحل بالقرب من باتياس وارنون اسم رجل
والشقيف المذكور معقل حصين والشقيف ايضا شقيف تيرون بكسر المشاء الفوقية وسكون

(١) المتأولة قيل انه مشتق من تولي اي اتخذ دليلاً لانهم تولوا آل البيت عليهم
السلام اسم اتخذهم اولياء واتبعوهم فصاغوا منها اسم الفاعل متولي فتعرفت حتى
صارت متوالي وقيل انهم كانوا يقولون للعلوب «مت وليا لعي» فصاغوا منها كلمة
متولي ثم صارت متوالي واسم المتأولة خاص بشيعة جبال عامل ولبنان وبلادك فقط
والغالب انه حديث لا يرجع الى اكثر من قرنين (٢) في جغرافيته (٣) في تاريخه

البناء التحتية وضم الرء المحلة وواو ونون قال وهي أيضاً قلعة بقرب صور بالساحل . وقال في شقيف تيرون انها قلعة منيعة ناقلة عن صف (مغد) على مسيرة يوم في سمت الشمال والشقيف أيضاً شقيف ارنون وهو في سمت الجبال عن شقيف تيرون وشقيف ارنون بعض مفارة مخوفة في الصخر وبعضه له سور وهو حصين جداً

والاصح ان بلاد الشقيف (١) من مقاطعات جبل عامل الثلاث وهي بلاد الشقيف وبلاد بشارة واقليا الشحار والتفاح ويسمى جبل عامل او عاملة وجبل الخليل (٢) وهو البلاد الواقعة في نواحي قلعة الشقيف سمي بعاملة القضائية وهي ام الحارث بن عدي الذي نُسب قبيلته اليها نزلوا الشام مع بني جذام ونظم وغان وشقيف تيرون هي المعروفة اليوم بقرية نيعا على حدود جزين «Casale de Gezin» من اعمال لبنان وفي شقيف ارنون او ارنولد نسبة لارنولد من ملوك الصليبيين شي من ابناء الصليبيين

والغالب ان هذين الشقيفين كان يسمى احدهما بالشقيف الكبير وهو شقيف ارنون (٣) وكان له برون وله وال كما كان لغيره من البلاد المشهورة ، قال ياقوت (٣) : الشقيف كالكهف اخيف الى ارنون اسم رجل امارومي واما افرنجي وهو قلعة حصينة جداً في كهف من الجبل قرب بانياس من ارض دمشق وبينها وبين الساحل وشقيف تيرون وهو أيضاً حصن وثيق بالقرب من صور

وقال شيخ الرتبة «٤» جبل عاملة عامر بالكروم والزيتون والخروب والبطم واهله رافضة امامية وجبل جبج «جباغ» كذلك اهله رافضة وهو جبل عال كثير المياه والكروم والفواكه وجبل جزين كثير المياه والفواكه وقلعة شقيف تيرون قلعة حصينة على جبل عال ولها عمل ولها نائب ولم يحكم عليها منجنيق وجبل تبنين «Toron» وله قلعة ولها اعمال وولاية واهلها رافضة امامية وقلعة هوزين وهي على حجر واحد ولها عمل . وبعد تبنين خمس ساعات عن صور الى الشرق الجنوبي وبها قلعة بناها هيوسنت ادمير صاحب طبرية سنة ١١٠٢ م وحوصرت وجرت فيها مواقع الى ان فتحها صلاح الدين وانت ترى ان شيخ الرتبة فصل هذا الجبل الى جبال وذلك في القرن الثامن ولعله كان يعرف كذلك في عهده ومن المحقق ان قلاع هوزين وتبنين والشقيفين ارنون

(١) دواني القطوف (٢) العرين بالمصطلح الشريف (٣) معجم البلدان

(٤) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر

وتبرون داخله في جبال عامل وكم قلمى صلاح الدين بن ايوب في فتحها من الشدائد وقد مر الرحالة ابن جبير في اواخر القرن السادس بجبل عامل فصار من بانهاش الى قرية تعرف بالبلية « ميس » بقرية من حصن هونين فيات فيها ثم رحل من الغد فاجتاز في طريقه بين هونين وتبزين بواد ملتف الشجر واكثر شجره الرند بعيد العمق كأنه اخندق السحيق المهوى ثلاثي حافته ويشعل بالسماء اعلاه يعرف بالاسطبل لو ولجته العساكر لغابت فيه لا تنجى ولا مجال لسالكه عن يد الطالب فيه المبهط اليه والمطلع عنه عقبتان كوثودان فغجب منه فجازه فمشى عنه يسيراً وانتهى الى حصن كبير من حصون الافرنج يعرف بتنين وقال عنه انه موضع تمكيس القوافل ووصف كيف اخذ الافرنج من قافلاته المكوس .

وقال بعض المتأخرين (١) ان جبل عامل يقال له بلاد بشارة نسبة لاحد حكمائها في القرون الوسطى قيل انه من الامراء بني معن وقيل هو بشارة بن مقبل القحطاني وكل ذلك لم يبق عليه برهان والذي يدور على الاسن ان مركز امارته في قرية زبقين من اعمال صور حيث لا تزال الآثار الفخمة فيها تدل على ذلك والارجح (٢) ان بلاد بشارة نسبت الى حسام الدين بإشاره من امراء الدولة الايوبية ونقسم بلاد إمارة الى قسمين إمارة الشمالية ونهايتها في الشمال نهر الاولي « *Boatrenus* » ويفصلها عن الجنوبية نهر الليطاني وبشارة الجنوبية ونهايتها في الجنوب نهر القرن وكانت بلاد بشارة عامة تقسم الى ثمان مقاطعات اربع في بشارة الجنوبية وهي تبين وهونين وقانا ومعركة ويتألف منها الآن قضاء صور وقضاء مرجعيون وثلاث في بشارة الشمالية وهي الشقيف والشومر والنفاح المعروفة الآن بناحية جباع ويتألف من الثلاث الآن قضاء صيدا والثامنة مقاطعة جزين الداخلة في قضائها من جبل لبنان

وقد كان بعض الجغرافيين « ٣ » يعد مدينته صفد من جبال عاملة كما توسع بعض المتأخرين في تخومه وكادوا يدخلون فيه جبال الريحان واقصى حدود مرجعيون والذي عليه العرف المعلوم ان جبل عامل يحده « ٤ » جنوباً نهر القرن الجاري شمالي

(١) المقنط م ٣٦ ص ٤٢٥ المتأولة او الشيعة في جبل عامل للشيخ احمد رضا
« ٢ » المقنط م ٣٧ ص ٧٤١ للا مير شكيب ارسلان « ٣ » معجم البلدان « ٤ » الشيخ سليمان ظاهر

ترشيحاً من بلاد عكا واختلّفوا في الزيب هل هي داخلية سيفه جبل عامل ام لا وشرقاً ارض الخبيط « ١ » والاردن والحولة وقسم من جبل لبنان وشمالاً نهر الاولى وبذلك تدخل صيدا في جبل عامل وغرباً البحر الرومي ويقسم الى قسمين كما مر برك أنفاً شمالي وجنوبي فالقسم الاول يسمى ببلاد بشارة الشمالية والقسم الثاني ببلاد بشارة الجنوبية وطوله ١٨ ساعة وعرضه يختلف من ٤ الى ٨ ساعات نزله بنو عاملة فندب اليهم الا ان هذه التسمية اليوم بجبل عامل او بني عاملة معروفة بين الخاصة في الاكثر اما العامة فيطلقون عليه اسم بلاد بشارة ولا سيما قضاء صور وكان بنو عاملة نزّلوا الحولة كما افرقوا في الجبل وكما نزل الفسانيون في حوران والشام والمناذرة في العراق

وقد كانت حاضرة البلاد تبين بادي بدو وهونين وقلعة الشقيف ثم تراجع عمرائها بما سطا عليها من المحن والاحن وكوائن الزمن وخلقتها جباع وغيرها والنبطية اليوم اكبر بلد في الجبل وهي قاعدة البلاد الوسطى سكانها نحو خمسة آلاف نسمة والمدينة الثانية بنت جبيل فيها نحو هذا القدر من السكان وهي على ثمان ساعات من النبطية وثلاث ساعات من صفت والثالثة جوية في قضاء صور وتقدر قرى جبل عامل بنحو ٣٠٠ قرية ففي قضاء صور ١٢٧ قرية وفي قضاء صيدا ١٤٧ وفي قضاء مرج عيون ٥٤ فاذا حذفنا بعض القرى التي لا تدخل في عامل ولا سيما قرى المرج والحولة كانت قرى الجبل كما قلنا وهي نحو ثلث قرى جبل لبنان كما ان اهله شحور بعهم ولكن ابن لبنان بعمرانه من عامل

مرنا من بانياس الى البعلبية سبع ساعات في جبال شاهقة وعرة ولكنها مكللة بالغضرة انصرة للغاية وقطعنا الجسر الممتد في نصف الطريق على نهر الليطاني^(٢) الذي ينبع من ارض كركك نوح في البقاع ثم تصب اليه عين وانهار وهو يمتد من ذبل جبل لبنان حتى يمر بجبال مشغرة ودهورها عين كثيرة ثم يمر بالجرق ثم بالشقيف ثم يعظم هناك ويمر فينصب في البحر الرومي قرب صور وعلى نحو ساعة ونصف من صور يمر بمدفن اسمه النبي قاسم فيسمى القاسمية وهو من اعظم انهار الشام ولا سيما في الشتاء والربيع

وقد كان فكر بعضهم ان يحجره الى وادي الزبداني ليضمه الى مياه نهر بردى

« ١ » قال شيخ الربرة والخبيط وهو قطعة من الغور الاعلى شبهه بالعراق في الارز والطير والماء السخن والزروع النجابة « ٢ » شيخ الربرة

والفيجة فيسقي دمشق وغوطتها وبلاد مرج الصفر منها ولكن ثبت له ان مجراه اسفل من دمشق فلا يركبها وكذلك يحاول اهل النبطية ان يجلبوا منه قسماً ببعض الآلات الرافعة يجعلون ماءه في انابيب من حديد لتدخل بدم في طور المدين من حيث استقاء الماء على نحو ما فعلت بيروت ودمشق وصيدا وهو يكلف بضعة عشر الف ليرة وكان فيهم وهم فاعلون

وكذلك يفكر جماعة من مهندسي الافرنج في تحويل مجراه قبل مصبه بساهتين ليسقوا بمائه الاراضي المستطيلة على شاطئ البحر بين اقصى حدود جبل عامل وارض صور من جهة صيدا ولو فعلوا لاتي عملهم بفوائد مادية لهم ولبالبلاد ولما ذهبت تلك المياه بدون فائدة وغدا الساحل من صور الى صيدا والمسافة بينهما اربع ساعات في المركبة تحداث دمشق باشجاره ومزروعاته الصيفية

ويقدر ان المهاجرين من عامل بخمسة عشر الف مهاجر دع عنك من قصدوا مدينة بيروت وغيرها من شبانه فاشتغلوا في الحولة وطلاء الاحذية وغيرها من المهنة الشاقة الراجعة ولا يقل عددهم فيما حسب عن نصف هذا القدر فيكون بذلك قد فارق الجبل من ابناؤه نحو السبع اذا فرضنا ان سكانه مئة وثلاثون الفا على ما قدره بعض العارفين ومع هذا فلا تجد انخراطاً في زراعته ومن اعم غلاتهم الدخان «التوتون» يزرعونه في الصيف بعلا فيجود من وراء الغاية كجودته في جبال اللسك «الكليبة» والتبرية حمراء على الاكثر ويزرعون المزروعات الصيفية كالبقول وبعض الخضر فتتموكلها بدون سقيا نمواً مدهشاً وزراعتهم الشريفة احسن من كثير من الاراضي الجبلية في سورية وكانت الزراعة تراجعت في القرن الحادي عشر «لما اخذت سورية تلتهب بالفتن واشتغل الفلاح بالحروب عن النظر في زراعته فتضب معين الثروة وعاد اكثر الاراضي مهملات بوراً وبعد ان كانت الاراضي الزراعية متسعة الارحاء في بلاد بشارة اصبحت على طول المدة حراجاً واسعة ومرابي الا بعض الاراضي المجاورة للقرى والمزارع» وسكان الجبل شيعة امامية وليس بينهم سنة الا النادر جداً وبعض المسيحيين ممن التحوا الى اهل البلاد ايام حوادث لبنان منذ ٥١ سنة دع عنك من في صور وصيدا من السكان الاصليين وهذا الجبل مبعث التشيع في بلاد الشام ومنهم قسم في جزين والمثني والبيرون وكسروان من لبنان وبلاد بعلبك وكان عملاؤهم او قهناؤهم يدرسون في مدارس مهمة كانت لهم في هذه الديار مثل مدرسة جباج التي خرجت جلة فقهاءهم

وأديانهم عرفناهم بكتبهم وأعمالهم ومدارسهم وعينانا وجزين ومشغرا والشقراء وكل هذه المدارس الدينية درست اليوم حتى اضطروا القوم ان يرسلوا ببعض ابنائهم الى النجف في العراق يلتمسون العلوم الدينية عن اثمتهم هناك وبعد ان يقضوا بضع سنين يعودون وقد حفل وطابهم بما اتفقوه من مدرسة النجف التي هي للشيعة بمثابة الازهر للسنة . واني ليسوء في ما سمعته من تعصب بعض هؤلاء الفقهاء على المدينة الحديثة تعصبا ما كنت اخلل صدوره ممن يدرك من الحياة في الامم فقد نقل لي ان بعضهم يهرمون الى اليوم قراءة الصحف لانها تفسر بالدين يزعمهم وتشغل عن الآخرة حتى ان الفحة بلغت ببعضهم ان حرم على المنبر قراءتها وجاهر باليمن من يؤازرها فاضطر كثير من ضمام العقول ان يقطعوا اشتراكاتهم بالمجلات والجرائد ليعيشوا بدون نور الاما يرسله عليهم مشايخهم ممن خفت وطأتهم والله الحمد بعد الدستور وكانوا مع الايمان فيما مضى يعرفون لحم الفقير ويمتصون دمه ولا راسع ففس القانون الاساسي من الخساق بعض الشيء وتوشك تلك البقية من - لمطة الجامدين من رؤساء الدين ان تذهب كما مس الدابر اذ ليس في متن الاسلام ولا في حواشيه وشروحه ما يقال له سلطة دينية . وفي الحال التي انتهى اليها المسلمون على اختلاف مذاهبهم عبرة لمن اتقى السمع وهو شهيد .

تراجع التعليم الديني في عامل وكان ابطال امتحان طلبة العلوم الدينية ايام عبد الحميد من جملة الاسباب واسكن البلاد ما خلت ولا تخلو من مفكرين وعلمين ممن يعتبرون الامور بمقاصدها وينظرون الى النافع من حيث هو وقد كاد ايمان البلاد ينزعون تلك التقاليد التي وضعها الجامدون من الامتناع عن الاختلاط بالمخالف ولا سيما اذا كان من غير اهل الاسلام ومنهم اليوم من يعيشون باولادهم الى المدارس العالية في بيروت وفي صيدا وكافي بهم وهم يرسلون ابناؤهم غدا الى الغرب ليستقوا العلوم من مصادرها كما فعل اخوانهم المسلمون في بيروت ودمشق وبلبك وحاصبيا ولو بعثوا من ناشتهم لتلقي شوقون الدنيا بمثل العدد الذي يعيشون به الى العراق لتلقف مسائل الدين اذا لا أصبح عامل ارقى بمجموعه من ابدان وما لبنان عنه بعيد .

ولسائل ان يسأل ما اذا كانت عاقبة سلطة الرؤساء في المروءسين هنا فالجواب انها علمت الكثير منهم الاحتيال وشهادة الزور والاستهتار بالشعائر سرا . اخلاق تجدها في كل مغلوب على امره ارفعى غير قانون العقل دستورا . ولا يفهم من هذا ان جبل عامل اختص بذلك من دون سائر بلاد الشام فان هذا القطر متساو في اخلاقه الا قليلا

ومنى تعلم ابناؤه ولو التعلیم الابتدائي لان القارئین والكتّابین لا يزدبون في قرية من قرى عامل على عدد الانامل ينزعون ايديهم ولا جرم من ايدي اولئك الذين قضى عليهم نكد الطالع ان يكونوا كالميت بين يدي الغاسل يمر كونهم بحسب ما تملي الالهواء النفسية .

هذا اجمال عن بلاد عامل بقي ان نقول ان الحكومة اخطأت في تقسيماته الادارية فجلت مراكز الحكومة في اقصاى تخومها وتركت اواسطه بدون وازع جلست الاقضية في صور وصيدا ومرجعيون وانشأت من التبطينية وتبطين مديريتين والمديريات ضعيفة السلطة بالنسبة للاقضية والالوية ففي مديرية التبطينية مثلاً ٤٣ قرية فيها من السكان نحو ٢٥ ألفاً افلا يجدر بها ان تكون قضاء برأسه وهكذا لو نظرت في التقسيم الماضي لرأيت غير معقول والجبل يحتاج لبضع مديريات وبضعة اقضية لتحسن طرق جبايته ويكون للحاكم قوة تحول دون التعادي بيد ان الامن موفور فيه خصوصاً بعد الحملة الخورانية التي سرت منافعها الى اقاليم سورية عامة وتحت القوم بانتباء حكومة الدستور لكل مشاغب ومنقضى يجاذبها جبل الخروج عن الطاعة ولو جمعت الاسلحة من جبل عامل واللكام لاستباحرت سورية باجمعها آخر الدهر ان شاء الله .

ورجاءنا ان يود الى هذا الجبل سكانه المهاجرون او سوادهم الاعظم على الاقل وقد تهذبت عقولهم التهذيب الغربي في الجملة فيعمرون رباعه وبقاعه على نحو ما عمر اللبنانيون بلادهم وبيدروا فيها من المال في الطرق المحددة ما يعود عليهم وعلى جبالهم واوديتهم المحصية الصافية الرفاهية والراحة يعمرونها كما يعمرون الصيونيون القرى التي نزلوها من ارض فلسطين والجبل فقد مر بنا مكارنا بقرية المطلة في اقصى حدود الحولة وهي لجامعة من الامرائيليين فرأيناها بتنظيمها كقرى اوريا فلأرأى السكان مجاورتهم وقلدهم في مرافق الحياة والشؤون النافعة

صيدا وصور

ما الروض الاراض باكره السحاب ولا نسيم العبا عطر بالشيع والملا ب ولا بمجامع الانس ولقاء الاصحاب ولا العافية في بدن ذي اسقام واوصاب ولا النضارة في حدود الغائبات الكعب ولا تزييد العندليب وانبين العود والرباب ولا نبيل الاماني بعد طول التطلاب ولا زينات الاوتار تلين لها العم الصلاب ولا كشف غوامض المسائل بعد ان خفيت عن طالبها الاحقاب — ما كل هذا باجل من نزول صيدا في نيسانها وابارها

وقد طرزت ضواحيها وحواشيتها وترنحت بالمرقصات المطربات اعطاف شاديها وتغنت
اطيارها في اشجارها ونفنت انوارها بين ازهارها وفاح اريج تربتها الزكية وتسللت
سواقيها النقية ففعمت الارعاء بماه ازاهيرها وورودها فكانت بهجة النفوس
وريحانة الارواح

اتبعها من طريق صور وكنت قصدت هذه من النبطية قاعدة جبل عامل والمسافة
بين النبطية او النابطية وصور سبع ساعات في طريق صعب في الجبل وليس في صور
ما يستحق ان يذكر سوى تاريخها القديم اما حالتها الحاضرة فاشبه بقربة وسط جزيرة
تصل مع البريمال وهي محصورة ضيقة وبلغني ان نفوسها لا يتجاوزون سبعة آلاف
نصفهم من المسيحيين والنصف الآخر مسلمون وتجارتها ضيقة جداً وزراعتها متوسطة وقد
ذكر القدماء بان صور هي التي اوجدت فن الزراعة وغرس الكرمة

كان اسور شأن في القديم دونه اليوم ميناء مهمبورغ ومرسيليا ولندن ونيويورك ومن
مينائها وميناء صيدا سافرت سفن الفينيقيين واستعمرت شواطئ البحر الرومي حتى بلغت
مضيق جبل طارق بل تجاوزته في بحر الظلمات الى ان بلغت الجزائر البريطانية واستعمرتها
واقامت فيها مصانعها ومناجرها على حين لا ترى اليوم الا قوارب حقيرة ومراكب شراعية
صغيرة لا تدل على عظمتها ولا تشعر الا بالفقر ومسكنتها

أصحح ان صور التي لا تصدر الآن الا قليلاً من القطن والدخان كانت فيما مضى (١)
تصدر الى بلاد العالم المدني السكر والخرز والزجاج والخروط والمعمولات وعسل جبل
عامل وارجوان صيدا (٢)

أصحح ان هذه القرية الصغيرة النطاق الكثيرة الدور والمنازل والحوانيث
كانت ذات طبقات ست وسبع وثان ويحلب الفينيقيون الماء في قوارب لانهاهم وهي
مركز حكومة فينيقية التي كان طولها خمسين فرسخاً وعرضها نحو عشرة فراسخ يقصدها
اصحاب النواحي المستقلين الذين يحكمون انفسهم بانفسهم لغرض المصالح المشتركة فكانت
منذ القرن الثالث عشر اهم مدن فينيقية ضاقت على اهلها فاقامت مدينة جديدة قبالتها
واسس تجارها مستعمرات في البحر الرومي كله لان زراعتها لم تكفهم - أسسوها ليعيخوا
الفضة من مناجم اسبانيا وبلغ العالم القديم وكم أسسوا مثل قرطاجنة مدناً لا تزال انقاضها
شاهدة بعجزها الماثرة ولذلك كان تاريخ صور وصيدا عبارة عن تاريخ العالم القديم ؟

(١) جغرافية المقدسي (٢) تاريخ الحضارة لنيويوس نوريب منشي المقدسي

اصحیح ان ملوك اشور حاولوا مرات الاستيلاء على صور اي مدينة الصخر فردوا عنها خائبين لخصانتها ولم يخضع لسلطانهم الا بعد العناء الطويل محتفلة بادارتها الاصلية وانت بخت نصر بعد ان حاصرها فاشتد في حصارها ثلاث عشرة سنة اضطر ان يعقد مع صاحبها ابوبعل معاهدة وان اهلها قدموا للفرس اساطيل مهبة ولذلك كان اول هم للاسكندر المقدوني ان يضرب على عظمة صور حتى تكف عن مد يد المعونة لاعدائه الاكامرة ؟

اصحیح ان القسم القديم من هذه المدينة المسمى بالتيروس *Palatynos* كان يمتد من نهر القاسمية في الشمال الى رأس العين في الغرب اي على مسافة ساعتين ليس فيها الآن الا رمالاً وبعض الزروع البسيطة وان الاسكندر جعل عاليها سافلها ليبي بائقاضها بين البر والجزيرة سده الغرب وطوله خمسمائة قدم وعمقه ستون وان حصاره لما دام سبعة اشهر وقد اجرى اليها الماء^(١) وانها بعد هذا الحصار المنهك بسبع عشرة سنة تعاضت على اتيفوس على عهد البطالمة خمسة عشر شهراً وانها كانت على اوائل انتشار النصرانية اهم مدن فينيقية واولاها بالتقدم وظلت الى القرون الوسطى من المواني التي صعب على الفاتحين اخذها ولوم يذاً اختلاف بين ملوك الطوائف لما وجد الصليبيون سبيلاً الى الاستيلاء عليها سنة ١١٢٤ م ولقد حاصرها الملك الناصر صلاح الدين يوسف فكانت عليه صعبة المثل ولما سقطت عكا بايدي المسلمين اضطر الافرنج الى الرحيل عنها بعد ان احتلوها ١٦٧ سنة اقاموا بها بعض الابراج في البحر لا يزال بعض انقاضها يادياً وحكمها الامير فخر الدين المعني وعبثاً حاول انقاضها من كبوتها واذا نظرت الى البلاد رأيتها تشقى كما تشقى العباد وتسعد

اصحیح ان عكا وصور وهما الآن فرضتان حقيقتان جداً من مواني الشام كان لها من المكانة في القديم ما لم تحز بيروت بعضه اليوم مها بلغ من مجدها البحري وان صور كانت هي وعكا ميناء دمشق وسائر مدن الهاخاية منها تصدر التجارات وترد الواردات وهما مقصد السياح من الشرق الى الغرب وبالعكس ؟

قال ياقوت : ان صور مشرفة على بحر الشام داخله سيف البحر مثل الكف على الداعد يحيط بها البحر من جميع جوانبها الا الرابع الذي منه شروع بابها وهي حصينة جداً ركنية لا سبيل اليها الا بالخذلان وهي معدودة في الاسلام من اعمال الارون

بينها وبين عكة ستة فراسخ وهي شرقي عكة . وذكرها شيخ الربوة من جملة العجايب فقال : ان البحر الرومي منها رمية نشاب وهي مربعة البناء من خارج وهي ممتدة من الداخل وعمق الماء الى اسفل ثلاثة ارباعون ذراعاً بالكبير ويخرج منها ماء كثير وجريته فرسخين يجري الى المعشوفة بسقي اقصاها ومزدرعات ، وروى ابن فضل الله : ان صور كانت ولاية في القرن الثامن وفيها كنيسة يقصدها ملوك من البحر فلهذا لا يزال عليها الرقبة وهم على هذا بأنونها مباحثة ثم يقضون فيها ما ارادوا ثم ينصرفون ولعل تلك الكنيسة هي كنيسة اللاتين التي يقال انها من بناء الملك قسطنطين وقال البكري (١) ان السفن كانت تسلك من الاسكندرية الى ابي قير فدمياط فبحيرة ثيس ثم الى جزيرة دبقوا وهي التي تصنع فيها الثياب الدقيقة ثم الى تيدار مياس (٢) ومنها الى غزة فملاحه الواردية فعسقلان فقيسارية فيافا فرأس الكرمان (لعله رأس الكرمل) تخيفا فمكا فصور وهي داخل البحر وهي ساحل بيت المقدس ثم الى صيدا ثم الى بيروت ثم الى طرابلس الخ . وانت ترى اليوم ان من هذه الموانئ السورية ما لا تغف عليه المراكب مثل عسقلان وقيسارية وصور وصيدا فسبحان محول الممالك قرى وجاغل المجاغل معالم

وقال الشريف الادريسي بان صور كانت مرسى يدخل اليه من تحت القنطرة وعليه سلسلة تمنع الراكب من الدخول قال ابن سعيد : صور التي لا يرام لحصار من جهة البر وقد حفر الافرنج حولها حتى اداروا بها البحر قال العريزي وبين صور وعكا اثنا عشر ميلاً وفتحت في سنة تسعين وستائة مع عكا وخربت وقد نقل معاوية اليها والى عكا قرماً من فرس بعابك وحمص وانطاكية سنة ٤٢ وكانت خراباً يوم مر بها ابن بطوطة (٣) سنة ٧٢٦ وبخارجها قرية معمورة سكانها من الشوزة «؟» قال ان بابها الذي للبحر بين برجين عظيمين وبنائها ليس في الدنيا اعجب واغرب شأناً منه كما مر بها ابن جبير قادماً من عكا فاجتاز في طريقه على حصن كبير يعرف بالزاب « الزيب » وهي مظلة على قرى وعمائر متصلة وعلى قرية مسورة تعرف باسمكندرونه وقال في وصف صور :

مدينة يضرب بها المثل في الحصانة لا تلقي لطلالها يد طاعة ولا استكانة قداعدها الافرنج مفزعا لحادثه زمانهم وجملوها مثابة لامانيهم هي انظر من عكة سكا وشوارع

(١) كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب (٢) راجع رحلته

وأعابا إلى في الكفر طابع وأجرى إلى بر غرباء المسلمين شمائل ومنازع فغلا تهم .
 أصبح ومنازلهم أوسع وأفسح وأحوال المسلمين بها أهون واسكن وعكة أكبر وأطقى .
 وأما حصانيتها ومعنتها فاعجب ما يحدث به وذلك أنها راجعة إلى بابين أحدهما في البحر والآخر
 سيف البحر وهو يحيط بها الآن من جهة واحدة فالذي في البر يقضى إليه بعد ولوج ثلاثة
 أبواب أو أربعة كلها في ستائر مشيدة محيطة بالباب وأما الذي في البحر فهو مدخل
 بين برجين مشيدتين إلى ميناء ليس في البلاد البحرية اعجب وضعاً منها يحيط بها سور
 المدينة من ثلاثة جوانب ويحدها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص فالسفن
 تدخل تحت السور وترسي فيه وتعرض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع
 عند اعتراضها الداخل والخارج فلا مجال للمراكب الا عند ازلتها وعلى ذلك الباب حراس
 وأمناء لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج الا على اعيانهم فشان هذه الميناء شأن
 عجيب في حسن الوضع ولعمرة مثلاً في الوضع والصفة لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل
 تلك وإنما ترسي خارجها والمراكب الصغار تدخل إليها فالصورة أكمل واجمل واحفل .
 قال وهاتان المدينتان عكة وصور لا يأتين حولها وإنما في بسيط من الأرض الفج
 متصل بسيف البحر والقوا كه تجلب اليهما من بساتينها التي بالقرب منهما ولها عمالة
 متسعة والجبال التي تقرب منها معمورة بالضياء ومنها تجبي الثروات اليهما وهما من
 غر البلاد اه .

وقال ابن خردادبة^(١) وسواحل جند دمشق عرقة طرابلس وجبيل وبيروت
 وحيدا وحصن العرفند وعدلون وسواحل جند الاردن صور وعكا وبصور صناعة
 المراكب أي المسلحة (الثلاثة) وسيف زهرة المشتاق ومن اسكندرية إلى مدينة صور
 خمسة عشر ميلا وهي مدينة حسنة على ضفة البحر ومن صور إلى طبرية يومان كبيران
 ومنها إلى عدلون وهو حصن منيع على البحر ومنه إلى صيدا عشرة أميال وبين صور
 وصرند يقع نهر ليطة « ليطاني » ومنبعه من الجبال ويقع هناك في البحر ومن صور
 إلى دمشق أربعة أيام وذكر ياقوت في المشترك ان صور اشهر مدينة بساحل بحر الشام
 واحصنها واحسنها افتتحت في أيام عمر بن الخطاب وبقيت في أيدي المسلمين إلى سنة
 ٥١٨ في أيام الآمر بالله فأخذها الفرنج

هذا كلام الافرنج والعرب في صور وقد بلغنا فيها ليلة انقضت فيها النفس انتفاضاً

لم يعرض لها سيفه احقر القرى التي مررنا بها في رحلتنا ومن الغد ركبنا المركبة الى صيدا في اراض مزروعة وجدول مناسبة والمسافة اربع ساعات وليس في الطريق من اثر الا بقايا انقاض الصرفدد وتعرف قديماً باسم الزاربات (Zarpath) وعدلون Orinthoporia ومغارة اسمها مغارة البزاز يوشح الماء من اعلى صخر منها التجمع من مياه المطر فيشرب منه الرعاة حيث يلجأون في الشتاء ويعتقد بعض العامة ان كل مرضع جف لبنها وانقطعت درتها تستشفى بما يرشح من قطرات الماء فيدر لبنها ولم يتم دليل على ذلك في الحس كما لم يتم حتى الآن دليل على الاستشفاء بالاماكن المباركة وبعض المعابد ومحال النسك وما التذوّر التي بنذرها بعض عامة المسلمين من السنة والشيعه والرحال التي يشدونها من القاضية الا من باطل السعي ومخلفات القرون الوسطى لا يؤيدها نقل ولا يقول بها عقل

وفي الطريق الى صيدا بعض ازاويس ومسلات منها ما هو يوناني ومنها ما هو فنيقي ومنها ما هو مصري كما تجد احواضاً وقبوراً ومعاصر زيت وانقاض معابد وغيرها والمهم بما كان هنا وفي صيدا نقله علماء الآثار الى متحف الاستانة او متاحف اوربا سراً ومدخل صيدا بجدرانها الانيقة مدخل المدن الكبرى وان لم يتجاوز نفوسها الخمسة عشر الفا ولقد رجح بعضهم ان الفينيقيين اختاروها لجمال بقعتها وجبال جزين والريحان وعامل مطلة عليها اطلال الاب على ابنه او العاشق على معشوقه

وكيف لا يبهج الابصار رؤيتها	وكل روض بها في الوشي صنعا
انهارها فضة والمسك تربتها	واغز روضتها والدر حصبا
وللهواء بها لطف يرق به	من لا يرق وتبدو منه اهوا
ليس التسمم الذي يهفو بها سمحراً	ولا انتشار لآلي الطل انداء
وانما ارج الند استشار بها	في ماء ورد قطابت منه ارجاء

اختلف المؤرخون في صور وصيدا وايهما كانت اكبر وانتم على عهد الفينيقيين ويقول استرابون ان صور اقدم مدن فينيقية واعظمها بعد صيدا وقد جعل صور العبقة على مسافة نحو خمسة كيلومترات ونصف من صور الحديثة اما بلين فيقول ان المدينة القديمة والحديثة متصلتان ببرزخ احدهما مع الاخرى ومحيطهما ٢٧ كيلومتراً اما المدينة الاصيلة فمساحتها زهاء اربعة كيلومترات

ظفر الباحثون بنقود فيها رسم انطوخوس الرابع قبل المسيح بمئة وثلاثين وستين او

سبع وستين سنة كتب عليها انها ضربت في صور أم العيدونيين ووجدت أيقونة أخرى كأنها رد على هذه الدعوى مكتوب عليها « الصيدونيون مذلون صور الكاذبة » وهكذا تنازعت صور وصيدا شرف التقدم كما تنازعتا مدينة صرند (صرقت) التي بناها اهل صيدا على ١٥ كيلومتراً ونصف جنوبي صيدون على الشاطئ ومعاها سبك الماعون من صرف العبراني أي ذوب

يبدأ التاريخ ناطق بأن صيدا وإن سبقت الفينيقيين بتأسيس المستعمرات منذ عهد عريق في القدم فأنشأت هيبون في نوميدا وقرطاجنة في شمالي افريقية فقد سبقتهما صور فيما بعد وتبين أن صيدا كانت من عمل صور حتى كانت صيدا تعرف باسم « صور صيدا » ^(١) وظلت صيدا مستقلة في شؤونها الداخلية وكانت لها حتى على عهد الرومان مجلس شيوخ وحاكم أكبر كالذي كانت تُنصبه الجمهوريات اليونانية . ولم يشتهر العيدونيون بأنهم والعصور بين اساتذة العالم في تبحر البحار بل اشتهروا أيضاً بأنهم اساتذة أيضاً في علم النجوم والرياضيات

خربت صيدا سنة ٣٥١ ق - م عقيب انتفاضها على ملك فارس وقتل وحرقت فيها ٤٠ ألفاً وفتحت ابوابها بنفسها للفاطحيين اليونانيين ثم استولى عليها الرومان وكان يطلق عليها اسم « قائدة المراكب » و « أم الغرى » و « المستعمرة السامية » وافتتح المسلمون صيدا سنة ٦٣٧ و ٣٨ م بدون مقاومة وقامت على عهد الصليبيين أهوالاً ودفعت مالا سنة ١١٠٧ حتى رفع الصليبيون عنها الحصار إلا أن بودوين الأول عاد فاستولى عليها سنة ١١١١ وبعد وقعة حطين ذلك السلطان صلاح الدين اسوارها سنة ١١٨٧ م ثم عاد الصليبيون فاستولوا عليها سنة ١١٩٧ واستغلها منهم الملك العادل وخربها في تلك السنة فأعاد الافرنج بناءها سنة ١٢٢٨ فخربها المسلمون سنة ١٢٤٩ ثم حصنها سان لوي سنة ١٢٥٣ وابتاعها فرسان الهيكل للصليبيين وهاجمها المغول سنة ١٢٦٠ فجعلوا عليها ساقطاً ثم وقعت في ايدي المسلمين وذلك الملك الاشرف حصونها .

ولم تنهض صيدا من كبوتها الا في القرن السابع عشر على عهد الامير نجرالدين المعني احد امراء الدروز الذي جعلها مقر ولايته ونشط الاوربيين على نزولها حتى ازدهرت تجارتها واقام فيها قصرآ له وخانات للتجارة وكان بعضهم من اهل طوسكانيا في ايطاليا وبعضهم من الفرنسيين وجابت تجارة الحرير اليها ثروة هائلة وظلت المدينة

منقدمة في تجارتها الى اواخر القرن الثامن عشر وامتدت ابالة صيدا ^(١) سنة ١٨٣٨ فتألفت من بلاد ساحل عتليت وعمكا وشفا عمرو والجبل والشاغور وبلاد بشارة وطبرية وصفد والناصرية وتواجهها من القرى والعرب الخيميين في ضواحيها وقد ضربت اساطيل الاوربيين المتحدة سنة ١٨٤٠ قلعة الرفاء وما زالت انقاضها بادية

وكانت صيدا مرفأ دمشق الوحيد في القرن السابع عشر والثامن عشر كما كانت في القرون الوسطى وبين دمشق ^(٢) وصيدا ستة وستون ميلاً والميل ثلاثة آلاف ذراع او ستة وتسعون الف اصبع والفرسخ ثلاثة اميال او ثلاثمائة الف اصبع يقص اثني عشر الف اصبع وكانت الطريق على رواية العريزي من صيدا الى مدينة مشغرا وهي اتره بلد في تلك الناحية في واد في نهاية الحسن بالاشجار والانهار والمسافة اربعة وعشرون ميلاً ومن مدينة مشغرا الى مدينة تعرف بكامد (الغالب انها كامد اللوز قرية في غربي البقاع) قاعدة تلك البلاد قديماً ستة اميال ومن مدينة كامد الى ضيعة تعرف بعين الجر ثمانية عشر ميلاً ومن عين الجر الى مدينة دمشق ثمانية عشر ميلاً

ولا يعرف بالتحقيق الباقي الاول لصور وصيدا والارجح ان الاولى بنيت في ايام جلعاد من سبط منشا بني عموئيل اليهود والثانية بناها صيدون بكر كنعان . وكانت مدينة صيدون اي صيدا اول ما احده كنعان ^(٣) على بضعة مراحل من جنوبي بيروت ولم تكن الا قرية للصيدان (كما يدل عليه اسمها نفسه) بناها على مجاء في رواياتهم القديمة الاله بل (المعروف عند اليونان باسم آبتور) على النحدر الشمالي لرأس صغير يشرف بانعطاف نحو الجنوب الغربي وقد كان لمينائها عند السلف شهرة فائقة وهي محصورة بين صخور منخفضة متناوبة تبدي من النهاية الشمالية لشبه الجزيرة ثم تمتد بحذاء الساحل على مساحة بضع مئات من الامتار والسهل المحيط بهب يسقيه نهر جميل يعرف باسم بوسترين « نهر الاول » وفيها كثير من البساتين الغناء الارضة حتى اوجب هذا الموقع الطبيعي وهذا الجبال الخلقي تسمية المدينة بصيدون الزهراء ويجوارها شمالاً نهر الدامور وهي تمتد جنوباً الى مصب نهر الليطاني وفيما وراء ذلك من البلاد كان في حكم الصور بين

ة لوا وفي الاحقاب الخوالي التي مضت على العالم اي ايام كان الآلهة يعيشون بين
(١) دواني القنطوف (٢) تقوم البلدان (٣) تاريخ المسيو ما بـيرو تعريب احمد

الناس اختط ستمعروم على القارة رسم مدينة من قصب الغاب وأعلامها استقر آخره هيزعوس في بضع جزائر اقام فيها اعمدة مقدسة . وهيزعوس هذا اول بحري في العالم . وكان هذا مبدءاً صور ثم جاء بعد ذلك ملكارت وهو عند الصوريين مثل هرقل الجبار المشهور في جاهلية اليونانيين ويؤكد كهنه هذا الرب ان هيكله بني هو والمدينة في وقت واحد وقد مضى نحو ألفي سنة وثلاثمائة سنة حينما زارهم المؤرخ هيرودس فعلى حسابهم يمكننا ان نقول بان مدينتهم هذه أسست في نحو سنة ٢٧٥٠ ق م .

استكانت صور وصيدا للفتحين كما استكانت جبيل وبيروت من مدن الفينيقيين فتفرغت الى عهد رمسيس الثاني احد ملوك الفرعنة لاحتكار جميع تجارة مصر مع ام آسيا والبحر الابيض المتوسط وفي القرن الثاني عشر ق م حصلنا على استقلالهما لما ضعف امر العائلة العشرين من الفرعنة وكان خلال ذلك العهد كل من صور وصيدا عبارة عن دولة صغرى تطلع اليها انظار مجاورها بسبب ما احرزناه من توفر اسباب الثروة ولكنهما قاومتا هذه الاطماع مدة بما كانت لهما من الحصون والاسوار غير انهما لم يأتا لهما البقاء زماناً على هذا الاستقلال فاقطع من عسقلون (عسقلان) اسطول فلسطيني سنة ١٢١٠ وتلاقى بهارة الصيدونيين فدمرها تدميراً ثم اتولى على مدينة صيدون ومن نجا من اهله فروا الى صور فقويت بهم حتى صارت اقوى دولة فينيقية وفي ايام حيرام الاول (٩٨٠ - ٩٤٦ ق م) بلغت صور بعمارتها اعلى الدرجات وانبسط سلطانها

كانت صور متفرقة في عدة جزائر يفصل بعضها عن بعض السنة من البحر ليست بالمعينة بل تغلظها صخور طافية رؤوسها على صفحات الماء من جنس الصخور التي يتعذر معها اقتراب السفن في بعض المواضع من سواحل الشام فردم حيرام تلك المضائق التي تغلظها مياه البحر بمجور حصينة وردوم اقامها فانسعت رتعة المدينة ولكنها لم تكن لتسع سوى ثلاثين الى خمسة وثلاثين الفاً واثام ملوكها وتجارتها قصورهم في اواخر سفع لبنان وبقيت الجزيرة مركز الحكومة

وظلت صور راضية باداء الجزية للفتحين حتى نشب القتال بين ملكها ابولي « ٧٦٨ - ٦٩٢ » والملك تغلات فلازار الثالث صاحب اشور انتهت بهلاكه ووقوع صور في قبضة الاشوريين ولما سقطت نينوى عاد لصور استقلالها وفازت بدفع بخت نصر عنها بمعاونة الفرعنة العاصويين واحتملت الحصار ثلاث عشرة سنة « من سنة ٥٧٤ »

الى سنة ٨٧٠ « ولكن زفت قوتها بفتنها الالهية وفي سنة ٥٧٠ أعيدت الى سيطرة الكلدانيين ولما سقطت بابل في سنة ٣٨٠ حصل لصور وفينيقية ما حصل لها فدخلت في قبضة الفرس من غير حرب ولا قتال

كان لكل من صور وصيدا كما كان لكل مدن فينيقية رب خاص بها « بعل » وله عشتاروت « اسطرطوس وهي آلهة انثى » وكانت البعليم والعشتاروتات تمثل قول الطبيعة والشمس والكواكب او الاغراض التي تنجب اليها نفوس بني آدم مثل العشق والقتال وكانت هذه الآلهة متوطنة في المرتفعات والمشارف وفي الغابات وفي المياه وفي الاجمار الخام « بيت ايل — بيت الاله » وكانت هذه الآلهة تؤول الى زوج واحد اعلى او الى سبعة آلهة كبار. تحف باشمون الذي هو الاله الخالق وكانت عبادة هذه الآلهة غير منتظمة ومحفوفة باساليب القوة فكان القوم يحرقون الاطفال تمجيذا لها واذا حلفوا بالانقلاب العيني اخذوا يندبون ادونيس ثم اذا جاء الخريف احتفلوا ببعثه واثوره . ثم دخلت بعض القواعد الدينية المصرية في ديانة الفينيقيين

اخذت فينيقية عن مصر حروف الهجاء ومن الحروف الهجائية الفينيقية اشتقت حروف الهجاء الاوربية . واثرت في فنونهم من صياغة ونقش ونحت وعمارة وعمل زجاج صناعات مصر نارة وصناعات كلدانيا نارة اخرى واشتهرت صناعة الفينيقيين عند القدماء فقد اطلقوا طرق اصطناع الزجاج وحفظوا زمانا سر تحضير الارجوان وسيفي الآثار التي عثر عليها في امريت اي مارات القديمة ما يستدل به ان المدينة المصرية اثرت كل التأثير في المدينة الفينيقية بل ان معاصر الزبوت ذات الاجهزة الفخمة تشبه الآثار المصرية كل الشبه وكذلك اواني الفضة والشبهان « البرونز » التي كانت تصنع سيفي صور وصيدا تراها من خرفة باشكال مصرية ومثلة لموضوعات مصرية وكذلك الجواهر والاساور والخناجر ودروع الخواصر والخواتم والاقراط تشبه المصنوعات المصرية فلم يكن للفينيقيين قط فنون وطنية خاصة بهم متأصلة فيهم لانهم اقتصرُوا في كل عصر على تقليد اعمال الامم التي تحكمهم فكانوا يقلدون الصناعات المصنوعة والاشورية ايام كانت حكومة بلادهم سيفي ايدي المصريين والاشوريين فلما حكمهم اليونان ثم الرومان حاكوا الصناعات اليونانية

وبالجملة فان صور وصيدا كانتا مدينتي صناعة وتجارة يحمل ابناءهما مصنوعاتهم ومصنوعات غيرهم الى الجهات القاصية وهم وحدهم كانوا ينقلون البضائع في البحر المتوسط

مدة قرون طويلة اهـ .

هذا ما يساعد المقام على اقتباسه من تاريخ العاشميين القديسين اما حالتها الحاضرة فتأخرة وان كانت صيدا ترجح على صور كثيراً خصوصاً بعد انقضاء الاثنية التي يعود عليها منها دخل واقر لا سيما من البرنقال والليمون واللوز والشمش والموز والبلح وبني دنيا وهو شجر حديث ادخل الماطليون زراعته الى صيدا اولاً منذ نحو اربعين سنة وله طعم حلو مز وبذر كبير

ان تلك البقعة التي تقدر بنصف غرطة دمشق بمساحتها في ناك السهل الضخم الذي تطل عليه قم لبنان مغطاة بالتلوج وجبل الريحان وتومات نبحا (١) . وصيدا سيف عمراتها اليوم صورة مصغرة من عمران بيروت وفيها من المعاهد والمصانع مثل ما في الاولى فلها مدرسة صناعة لبشري الامير كانت ومدرستان لهم للذكور والاناث كما فيها مدرسة للسعوديين واخرى للفرنسيين كان وثالثة للاتحاد الامرائيلي ومدراس ابتدائية لجمعية المقاصد الاسلامية لا تعلق لها بجمعية بيروت المسماة بهذا الاسم ولا بجمعية النبطية التي اطلق عليها مثل هذا الاسم ايضاً وفيها مكتب ابتدائي ورشدي اميري وغير ذلك من الجوامع والكنائس كما ان فيها مزاراً يقال ان فيه شيئاً من جثة يحيى الحصور دايه السلام وهذا غير ثابت في التاريخ كما لم تثبت الدعاوي التي من قبله

وفي صيدا تصدر مجلة العرفان لمنشأها صديقنا احمد عارف افندي الزين وهي مجلة راقية خادمة للآداب العربية امتازت بمناشره علماء جبل عامل والتجف وايران وشعرائهم وكتابهم وما ترويه من آثار العلويين وتاريخهم ولها مطبعة منقنة وهي المطبعة الوحيدة في هذه البلاد وبالنظر لقرب المسافة بين صيدا وبيروت اكتفى الصيدونيون بجرائد بيروت ولم ينشروا جرائد لهم خاصة .

«١» معنى نبحا بالسر بائية المستريحة وهذه القرية على حدود جزين ويدخل في قضاء جزين من اعمال لبنان اليوم جبل الريحان ايضاً سمي بذلك لكثرة الريحان الذي ينبت فيه كما اكده ذلك بعض العارفين ويحده جنوباً نمر ومرجعيون ونهر الليطاني وشمالاً اقليم جزين وغرباً المدينة ومزرعة سجد ونهر الزهراني من اعمال صيدا وشرقاً الليطاني وقرية ميذنون من اعمال البقاع واهم قراء عرمتى وجرمق وهيشية وسكانها مسلمون شيعة ودروز ومسيحيون وفي دليل لبنان ان القرى الملحقة بساحية جبل الريحان هي عيشية وردية زغرين عرمتى جرمق شهبال صوبيرة زيد عقانة ريحانة قطرانة خلة خازن

وقد فُتحت صيدا شارعاً طويلاً لها أقامت فيه الدور والحوائث على الطرز الجديد في الجملة أما بناء المدينة القديم فضيق بهج مثل ابنة بيروت وطرابلس القديمة أو ادهي وامر وماؤها عذب يأتي في انابيب مثل ماء بيروت ويستقى منه في عالي البيوت وبلديتها تعني بتظيفها اكثر من غناية بلدية دمشق و بيروت وقصارى القول فان صيدا كما قال استاذنا الشيخ طاهر الجزائري تصيد الثلوب صيدا وعلى رأي ابن الساعاتي وقد مر بها يوم كانت تهد الافرنج فرأى مروجاً خضراء كثيرة نباتها الترخس وانفق انه هرب بعض الاسارى من صيدا فأرسلت الخليل وراه فردته فقال :

فقه صيدا من بلد لم تبق عندي بلى دينا
ترجسها حلية القبا في قد طبق السهل والحزونا
وكيف ينجز بها هزيم وارضا ثابت العونا

مراج هبون

عدنا من صيدا الى البعلية في مركبة وذهبتا من الغد في زمرة من الاخوات لزيارة قلعة الشقيف التي نسبت اليها البلاد المحيطة بها ويردها الى قبل الصليبيين عرفها الافرنج للمرة الاولى سنة ١١٧٩ ولما استولى عليها الصليبيون سموها الحصن الجميل وحق لهم ان يسموها كذلك لجمال موقعها المطل على نهر الليطاني المسابة مياهه في اسفل الوادي العميق ومن الجانب الآخر بعض القرى المشوثة في الخضرة التي تأخذ بجمع القلوب ومن البعيد سهل مرج عيون (Kjon) الوارد ذكره في سفر الملوك وينتهي هذا المرج بجبل الشيخ وبجانبه قلعة الصابية المطلة على حولة باتياس وبلاد بإشارة اوجبل عامل وفي الجنوب بلاد نفتالي الجبلية الى ضواحي صفد وعلى اليمين جبل الجرمق .

ومن قلعة الشقيف ايضاً ترى قلعة هزبن وفي الشمال الشرقي تصعد العين الوادي وفي اعلاه جبل الريحان منظر بلك على الانسان مشاعره فيدهش له ويتعجب ينظر الى القلعة فيراها محاطة في الجو كالعقاب تدل كل الدلالة على قدرة الانسان حتى سلف سالف الاحقاد ويقع نظره من جهة أخرى على اجمل مناظر سورية وتمثل له هذه البلاد وما قاسته من مطامح الفاتحين وسينات الظالمين المستبدين

في هذه البقاع التي منحتها الطبيعة ابواب الصفاء والرواء تطاحت سنين كثيرة جيوش اهل الصليب واهل الاسلام فاهلك الانسان اخاه بسائق الدين في الظاهر وسائق

الطامع الدنيوية في الحقيقة ولولا عزيمة من صلاح الدين يوسف بن ايوب نشت الاهواء لتجردها عن الاهواء لكانت بلادنا اليوم منكأ لدول اوربا او لاحدا من والمباقيت للاسلام والعرب كلمة تستمع في هذه الديار كما وقع لشبه جزيرة الاندلس وجزيرة صقلية من قبل

وقلعة الشقيف كسائر قلاع القرون الوسطى في بلاد الشام من بناء كثير من الملوك والمتغلبين واهم ابنيتهما من اواخر العهد الروماني (١) ومعظمها من بناء العرب وفيها معبد او مصلى من القرون الوسطى من الجهة الشرقية وهي محاطة من الجنوب ومن الغرب بهوة عميقة محفورة في الصخر عمقها من ١٥ الى ٣٦ متراً ومن الجنوب فقط تئصل القلعة بذورة الجبل ومدخلها الى الجنوب الشرقي وطولها ١٢٠ متراً وعمقها ٣٠ ومن طرفها الشمالي بناء ناتئ طوله ٢١ متراً يتجه الى الشرق وتناوها او صحتها في الجهة الشرقية منها عمقه نحو ١٥ متراً ومثلها الابنية الخارجية ولها انحدار يختلف من ٦ الى ٩ امتار وقد قام على الحائط الجنوبي برجان على شكل نصف دائرة

قامت القلعة على هذا المثال بحيث اعجزت المهاجمين ويقال ان صلاح الدين لم ينقطع اخذها بالفتح الا بغيرها به من قرية القليعة في الشق الآخر من الوادي على مسافة لا تقل عن اربعة كيلومترات وفي رواية تدور على السن اهل القرى هناك انه حاصرها اشهرأ ولم يستل على حاميتهما الا بحيلة دبرها قروي من اهل ذلك الجوار فدعا الحامية خارج الزلعة لأدوية ائدها لها وكانت الحامية مستأمنة له وقد انهكها الجوع حتى صارت تأكل القيران والجردان فاشعروا وهم مشغولون ببطونهم الا وعسكر صلاح الدين قادمون بطعام في زبي النساء حتى اقتربوا منهم فباغتهم بالقتل فلم ينج منهم نافع نار

والصحيح في فتحها ما قاله العماد الكاتب (٢) من ان صلاح الدين قصد الى شقيف ارنون من دمشق مارأ بقلعة بانباس « واتى مرج عيون وخبم منه بقرب الشقيف وجمع على من به من آلات الحصار اسباب الخوف « واقام عسكره سيف ذلك « المرج الواسع والروض الوشع « وكانت الشقيف في يد صاحب صيدا ارناط فامهله ثم امهله ولم يجد صاحب الحصن ملجأ « وتحول السلطان من مخيمه الى اعلى الجبل لمحاصرة الحصن ورتب له عدة من الامراء « الى ان تسلمه بعد سنة بحكم السلم وكانت مرجعيون تنوافد اليها جموع المتطوعة من دمشق وحروران والمرج والفوطلة قال : وفي يوم الاحد

خامس عشر ربيع الاول تسلّم بالامان شقيف ارنون واستمر الحصار عليه منذ نزولنا في السنة الماضية بمرج عيون وصاحبه ارناط صاحب صيدا في دمشق لاجله معتقل وباب خلاصه دون فتح شقيقه مقفل وذلك ان الشقي في الشقيف في زاده وعزاجتهاده ومرد عليه في الحفظ مراده وخانه في البصر ارنياؤه وارتياده ونخب من الرهب فؤاده واصلد بايأس زناده وامنع عليه اصداره وايراده فسلّمه على ان يسلم صاحبه وتخلص في النجاة مذاهبه وخرج هو ومن معه وترك الشقيف بما فيه وتركه للاسلام بما يحويه واخرج عن صاحب صيدا وصار الى حور ولبس من التشرىف والتسرىح حبير الجبوراه وبمدصلاح الدين نزلت القلعة الحامية الاسلامية وما زالت تثقل عليها الاحوال حتى سكنها في القرن الماضي ابنا العشائر او حكام جبل عامل ولم يفادرها الا في النصف الاخير من القرن السابق اما اليوم فقد امتست زريبة بأوي اليها الرعاة بفنعمهم وماعزم غادرناها عصر اليوم الخامس عشر من سياحتنا الى مرج عيون او مرجعيون كما يقال لها اليوم فاجترينا اليها جسر الخردلة الممتد على نهر الليطاني ومرج عيون كانت مملكة من تلك اسرائيل تحيط بها حدود رحوب وقادش وخابور وافيقي اي سهل هذا المرج الذي يمتد نحو عشرة كيلومترات وعلى نحو كيلومتر من الجديدة مركز مرج عيون اليوم تل دبين وهي ربوة في السهل فيها بض خرائب تدل (١) على انه كان هناك مركز عيون وعيون هذه كانت عرضة لهجمات آرام وآشور منها اخذت هذه المقاطعة اسمها وقال بعضهم ان عيون هي دبين وهي قرية على ميلين شمالي جديدة مرج عيون وعلى تل دبين آثار قديمة ذات شأن وقيل هي الخيام على ميلين الى الجنوب الشرقي من الجديدة واختلفت الاحوال على مرج عيون في الحكومات الاسلامية فكانت من اعمال صفد (٢) وسماها ابو الفدا مرج العيون بألف ولام وسماها غير مرج عيون وهذه التسمية نشأت في الغالب للعيون الكثيرة التي تتبع من ارض الجديدة خصوصا وهي عجيبة لا تكاد تخلو قطعة ارض من عين لبض فيها مع ان الجديدة على سطح مستو في رأس جبل لا اتصال بينها وبين القمم العالية حيث تبتى التلوج اشهرأ كما هو الحال في قم صنين في لبنان الغربي وقم حرمون اي انسان الشرقي والى شرق مرج عيون جبل الشيخ وقراء والى الجنوب بلاد بشارة وبحيرة الحولة والى الغرب قرى بلاد الشقيف والى الشمال جبل الريحان وقومات لجة او شقيف تيرون

ونكبي ميلين من الجهة الثانية عند منفرج الوادي قرية ابل ويقال لها ابل السقي تمييزاً لها عن ابل القمع من اعمال مرج عيون ايضاً وفي منتصف الوادي على نفس السطح الذي قامت عليه قرية ابل قرية الخيام او الخيم . والجديدة والسقي والخيام ثلاث بلدان كانتا بلد واحد ذات ثلاثة احياء لا نفل نفوسها عن اثني عشر الف نسمة والغالب ان ابل السقي كانت بعد الاسلام مقر عمل تلك الكورة بدليل ما قاله ابن خرداذبة (١) : كورة السقي وجربت والحولة قال ومن اخذ من ببلبك الى طبرية على طريق الدراج فمن ببلبك الى عين الجر عشرون ميلاً والى القرعون وهو منزل في بطن الوادي خمسة عشر ومن قرعون الى قرية يقال لها العيون تمضي الى كفر ليلي عشرون ميلاً ومن قرعون الى طبرية خمسة عشر ميلاً وعدا ابن خرداذبة من جملة كور الاردن كورة آبل واعلمها ايضاً هي بعينها او ابل القمع ويقول يافوت ان السقي قرية بظاهر دمشق ولم يقل عن مرج عيون الا انها بساحل الشام والغالب انها لم تكن مشهورة في عهده وان كان لما ذكر في الفتح الصلاحي

ويقع قضاء مرجع عيون اليوم كثير من قرى جبل عامل وعدد قرى قضائها ٤٠ قرية منها المهم جداً بشاريخه وكثرة سكانه كانت جبيل وهونين ودير عباس وميس ولا نفل نفوس القضاء عن خمسين الفا وربما كان المهاجرون منهم نحو خمسم وكثير منهم الذين وقفوا في اميركا واثروا ولا سيما سكان الجديدة مركز القضاء ممن لا تجد بينهم أمياً من الذكور والاناث ولا تشبها بهذا المعنى بلدة سيف سوربة الا الناصرة فيما اذكر لأن نفاس الطوائف النصرانية على تأييد نفوذهم ودهونهم فيها دعا كلاً منها الى فتح المدارس وتعميم التعليم مع التعاليم وقد فطراهل هذه البلدة على التقليد المفيد فاذا علم احدهم ابنه لا يلبث جاره ان يحذو حذوه وهكذا حتى اصبح اهل الناصرة واكثرهم مسيحيون منعزلين اما المسلمون فذاتهم شأنهم في كل مكان مررباه : يرضن الاغنياء منهم باموالهم حتى على تعليم اولادهم والفقراء انكلوا على الحكومة وهيئات ان يتعلم ولد يسلمه ابواه لمعلم تعينه المعارف هذا اذا فتحت لها مكاتب في مراكز الاقضية فما هو الحال في سائر القرى التي تمر بالعشرين والثلاثين والاربعين منها ولا تجد فيها مدرسة اميرية ولذلك ترى أبناء المسلمين يتصرف غنيهم على الاغلب الى الفسق والاعتداء ولا يجد فقيرهم متسعاً له من العيش ليتعلم فيرعي الماشية ويعيش في الجهل المطبق عمره .

دخلت جديدة مرج عيون بالمتعلمين من سكانها في طور المدن ومثلها بعدد السكان كثير جداً في بلاد هذا القطر فهي اصغر من حرستا وعربيل وداريا ودومة وجوبر من قرى غوطة دمشق التي لا تكاد تجد فيها مكتبة جيدة في الجلة ولكن اهلها على قلة عددهم اهم من جميع اهل الغوطة على قرب هؤلاء من دمشق لان الغوطيين اتكأوا على الحكومة فلم تعلمهم ولن تعلمهم اما اولئك فقد افضل عليهم اللاتين والروم والبرتسنتات فأحبوا تفريغهم بالآداب والمعارف على مناحيهم فاقام من اقام منهم عزيزاً وهاجر من هاجر منهم قادراً متعلماً

وبينا تجد المسلمين بأكل كبارهم صغارهم على ما سمعته من تلك الدعوى الفرية بين فقراء المسلمين في قرية الخيام واعيانهم الذين سلبوهم فيما مضى على ما يقال اراضيهم ليهنجوم من الخدمة العسكرية بكنتم اسماء نحو الفين منهم عن الحكومة نجد اغنياً مسيحيين يأخذون بأيدي ضعفائهم فيفضلون على الحاويج ويعلمون الاميين وبواسون من يستحق المواساة من البائسين ولا عجب فالعلم يعمر والجل يدمر .

في الجديدة تصدر جريدة «المرج» لصاحبها صديقنا الدكتور اسعد رحال وهي من جرائدنا الاسبوعية الراقية الرائجة وقد كان اكبر دواعي رواجها من انشطتها المهاجرين من اهل المرج ولا سيما سكان الجديدة العقلاء المنورون ولا اعلم في مدن داخلية الشام جريدة اسبوعية تضاهيها بالرواج اللهم الا اذا كانت جريدة حمص التي تباع ايضاً من المهاجرين الحمصيين «يج وزه زه»

وبعد فان هذا المرج بطبيعته من اجمل ما وقعت عليه العين من البلاد التي عرجنا عليها سنة رحلتنا يسرح النظر منه ماشاء في روض بهيج لو اكثروا فيه مزروع الاشجار المثمرة لفاق غوطة دمشق واشبه سهول فرنسا وجبالها خصوصاً واكثر دور الجديدة وابل والخيام اصبحت تبني على الاصول الحديثة بالحجر الصلد والقرميد البديع ولكل دار حديقة تحيط بها كالمهالة بالقمر وما ارض المرج الا كما قال الشاعر

ارض اذا عبس الشتاء رأيت	كملاء ملئت من الكافور
واذا الربيع تكلمت وجناته	فدبجات عطرت بمسير
واذا المصيف تلا لآت صفحاته	نفواكه من يانع ونضير
واذا الخريف نقلت اردانه	فمناع اقوات من المذخور
جمعت بها شئ المنى فكأنها	لقيا البشير بوصلة المهجور

وادي التيم

كتب لنا الطواف حول جبل الشيخ في هذه الرحلة ومساعدة جهاته الأربع .
وجبل الشيخ هو جبل حرمون بعينه المذكور في التوراة وسماء العرب جبل الثلج
قال حسان بن ثابت

من دون بصرى ودونها جبل الثا ^١ج عليه السحاب كالقند

ويسمى أيضاً أمانة وبل حرمون وسيثون وسريون وسنير وشنير وزعم بعض اصحابنا
ان السبب في تسميته هو ان شيخاً من زعماء الطائفة الدرزية سكن مغارة في
صفحه الغربي في القرن السادس للهجرة وتسمى مغارته الآن مغارة العباد واقام هناك
مع قومه السنين الطوال وبعث الافرنج يملأون هذه التسمية بياض الثلج الذي على قمه
ويشبه رأس شيخ اشيب . وتسمية العرب لحرمون بجبل الثلج تسمية طبيعية لان علوه
يحفظ الثلوج الى آخر فصل الصيف ولا سيما في المنحدرات العالية التي لا تعثر بها
الرياح الحارة والشمس على ما يجب وعلو انقى قمه فيه ٢٦٧٠ متراً عن سطح البحر او نحو
٩٤٠٠ قدم وطوله ثلاثون كيلومتراً او ثلاثة وثمانون ميلاً ^(١) او سبع ساعات وهو الى
الجنوب الغربي من دمشق على بعد ٣٠ ميلاً

ومن الغريب في امر هذا الجبل ان العيون المنجسة من ثلوجه تكثر جداً من شربه
اي من جهة وادي العجم واقليم البلان كما تنجس من جنوبيه او ما يقرب منها مثل عيون
نهر البانيامي والاردن وهو من سفوحه الغربية والشمالية ضنين بالماء جداً ولا سيما من
جهات راشيا

وبعد ذوبان الثلوج سيف او اخر الربيع يصعد الى انقى قمه بعض النظارة للزخمة
والصيد وغالب صمودهم الى قمه اسمها قصر شبيب وفيها الى اليوم انقاض بناء ولكن
الوصول اليها يحتاج الى سبع ساعات صعوداً سواء كان من حاصبيا او من راشيا او من
احدى قرى اقليم البلان فيشهدون منه سوربة باجمعها ويرون المناظر والمجاير دمشق
وكيف لا وقم حرمون اعلى جبال سوربة

قدس القدماء حرمون وكان من الجبال التي يفرغ اليها العباد كما تشهد لذلك المعابد
الكثيرة في جواره بل في سفوحه وقممه وكان الاسرائيليون يعجبون بعلوه ويحلونه لانه
يجمع على ظهره وفي صدره الفيوم والسحب وقد ورد سيف نشيد الاناشيد كلام على

(١) المسالك والممالك

الحيوانات الكامرة التي تسرح فيه وتفرح ولا يزال فيه الى اليوم جنس من الدب من النوع الذي يسميه الافرنج *Ursus Syriacus* وفيه انواع من الثعالب والثعالب وشروب من الطيور وبنت فيه من النباتات ما ينبت في جبال سورية عامة وتوجد فيه الكروم^(١) فوق ١٤٤٠ متراً من سطح البحر وبعد هذا العلو يطلع البلوط والمول وعلى علو ١٥٠ متراً من الكروم ينبت نبات الصمغ « السراس » وعلى علو ١١٥٠ الى ١٦٥٠ يكون شجر مثمر ولكنه بري وثمره يؤكل وعلى السفح الغربي من الجبل يوجد اللوز في مكان يدعى عقبة اللوزة . واللوز صنفان كما ان الخوخ الصخم صنفان وفي الجبل نوع من الكراز والاجاص وثبت فيه اصناف اخرى من الثمار البرية وهو قاحل لا خضرة فيه الا من سفحه الجنوبي حيث تثبت بعض النباتات مثل السيكرا وغيرها وجميع سفوح الجبل صعبة المروءة غير مخصبة لقلة التربة فيها وفقدان المياه بمدام الربيع ولا يبعد ان السفوح القريبة منه كانت في القديم مغروسة بالحراج والغابات الغنية الى الامكنة التي يساعد هواؤها على الانبات

وفي الاطراف الغربية من جبل الشيخ اي بين جبل الشيخ وجبال البقاع الشرقي اودية وتلعل يقال لها وادي التيم نسبة الى تيم الله بن ثعلبة^(٢) تفصله عن وادي الليطاني الاعلى سلسلة تلال تمتد شمالاً الى عين الجرفي البقاع وعلى تلاله قرى عديدة تبلغ خمسة وعشرين قرية ومنها يتألف قضاء حاصبيا وقضاء راشيا او التيم الاعلى وقاعدته راشيا كلمة سريانية بمعنى الرووس والتيم الاسفل وقاعدته حاصبيا كلمة سريانية ومعناها الجرار والى اليوم لا تزال آثار معامل الفخار في حاصبيا . ويحد وادي التيم شرقاً وادي العجم واقلية البلات وشمالاً سهل البقاع وغرباً مرجعيون وجنوباً بلاد الحولة وغرباً جبل الشيخ

وايس فيما ظفرنا به من كتب السلف اشارة تشعير مجد سابق لمدينتي حاصبيا وراشيا قبل الحروب الصليبية والغالب انها كانتا حصنين فقط لصد هجمات المهاجمين على المدن الداخلية على نحو ما كانت قلاع تبنين وهونين والشقيف والصيبة وغيرها وباس تيلا امراء الشهابيين عليها كثر الكلام بشأنها في النوارسج الحديثة ففي سنة ٥٥٧ هـ^(٣) قام آل شهاب من حوران وكانوا فيها منذ الفتح الاسلامي واصلهم من الحجاز وزحفوا الى وادي التيم بزعامة الامير منقذ وكان نزولهم في بيضاء الظهر الاسمر من الكنيسة الجديدة

(١) دليل بيدكر (٢) دواني القطوف (٣) تاريخ الامير حيدر الشهابي

على ساعة ونصف من ريشيا الوادي وكانت هذه البلاد تحت استيلاء الافرنج فردهم آل شهاب واستقذروها منهم في قصة بطول شرحها وكان المنولي على وادي النيم قباهم الامير ظهير الدين كرامة القنوشي صاحب ثغر بيروت فانت جموع الافرنج من صيد اوصور وعكا الى حاصبيا فردهم الشهابيون على اعقابهم مدحورين وطاردا واحا كالسكوت اورا وبسطوا احكامهم على هذا الوادي ثم اتصلوا بلبنان وتولوا امره بعد الامراء من آل من واستولى الشهابيون على لبنان نحو قرن ونصف وقد نصير بعض افراد من امرتهم من حاكوا لبنان ولم يزل اعقابهم الى اليوم مسيحيين اما من بقوا في وادي النيم فظلوا مسلمين ومنهم اليوم طبقة متمثلة تنولي الوظائف في الحكومة ولذلك غلط بيدكري قوله ان بني شهاب هم من امراء الدرروز ولو كانوا من امراءهم ما قتلوا في وقائع الشام المشؤومة سنة ١٨٦٠ في راشيا وحاصبيا بيد الثوار من اشقياء حوران ولبنان ايام قتل ٨٠٠ من المسيحيين في راشيا و ٩٧٠ من مسيحيي حاصبيا ولو لم ينج بعض الى دار البدة نائف شقيقة سعيد بك جبلاط لهلكوا عن آخرهم وان معظم من نراهم ساكنين في حارة الياض اليوم في حي الميدان بدمشق هم من جلوا عن وادي النيم ولا سيما من حاصبيا وراشيا يوم تلك الوقائع المشؤومة ونزلوها وناسلوا فيها فحلفت حالهم

اشرنا الى هذه الوقائع والفتائع اذ لا يسوغ للمؤرخ ان يسكت عن حوادث له علاقة كبرى بعمران هذه البعير خصوصا وقد حرقت في تلك الفتنة المشؤومة غابات وادي النيم ولا سيما حاصبيا وراشيا كما احترقت اشجار جزين واقليم الخروب من لبنان وجباع من جبل عامل وكان المنكوبون تحصنوا فيها فاشعلت فيها النيران ليهلك من لم يهلك بحد السيف والدين

كان وادي النيم من اهم مراكز الدعوة الدرزية ولا يزال الى اليوم كذلك وفوق حاصبيا على نصف ساعة منها خلوات البياضة وفيها مجمع هذه الطائفة الديني زرتهم افرأت فيها معبدا في الوسط مفروشا على نحو ما تفرش الجوامع والقرب من مساكن منها وقف البياضة ومنها ملك خاص لاربابها يحب اهلها الانقطاع الى العبادة ومن المنقطعين لهذه الغاية في البياضة ناس من وادي النيم وآخرون من الجبل الاعلى في حلب وجبال صفد وجبال لبنان وجبل حوران كما ان منهم المتزوج ومنهم المجرود وهم على جانب من التمسك والنشف شأن سائر العباد في معظم الامم على الغالب

وموقع البياضة جميل يطل على كثير من قرى وادي التيم وترى منه قلعة الشقيف وغيرها من بلاد مرجييون وجبل عامل والحولة فإذا أوقدت فيها النار شوهت إلى مكان بعيد . ونحو نصف مكان وادي التيم دروز يحسنون الزراعة وهم على جانب من الاخلاق يتفكرون على اعمالهم ويحسنون عشرة جيرانهم شأن كل من يتلم من ابناء هذه الطائفة ولا سيما في لبنان . ومن لنا برجالهم ان يببوا لتعليم اولادهم كما هب اخوانهم المسيحيون من جبل فاستفادوا وافادوا فان سبغ ابنائهم من الصفات الحسنة العربية ما لو توفرنا على تربيته وتذكيته بالعلم الصحيح لجاء منهم شعب من ارقى الشعوب العثمانية بشجاعته ومضاءه وحسن ادبه وعزة نفسه وسماحته وذكائه وبعض هذه الصفات مما يفاخر به المغاخرون

وليس في حاصبيا ما يستحق الذكر سوى معدن الحجر الذي كان السلطان المخلوع يستعمله لنفسه وظهرت منه فرائد مادية لاهل هذه الديار وهو اليوم مهمل اقله اليد العاملة في هذه الديار لان الناس هاجروا بالآلاف منها فاضطرت الحكومة ان تهمل هذا المعدن كما أهملت معدن سمعر في البقاع ايضا وغيره من المعادن في سورية لم تفكر في استثمارها وقد اضرا اعمال الحجر بآبار الكروم فتصاعدت اثاره وهو يستعمل كل سنة لتزبيرها وتآبيرها فلحقته الدودة من اجل ذلك وقتل مدخله

وقد سمعت ان من قرى ريشيا قرية اسمها بيت ليا على ثلاثة ارباع الساعة من ريشيا وكنت قرأت في بعض الكتب ان بيت ليا من اعمال دمشق تضاف اليها كورة نسب اليها فإذا سمعت روايتي تكون بيت ليا وادي التيم غير بيت ليا في غوطة دمشق التي ذكرها ياقوت ورد على من قال ان آزر ابا ابراهيم الخليل عليه السلام كان ينح بها الاصلام ويدفعها الى ابراهيم ليبيعها فيأتي بها الى حجر فيكسرها عليه والحجر كان الى عهد ياقوت بدمشق معروفا بقل له درب الحجر قال والصحيح ان الخليل عليه السلام ولد بارض بابل وبها كان آزر يصنع الاصلام وفي التوراة ان آزر مات ببحران وكان قد خرج من العراق فقام ببحران الى ان مات ولم يرد في خبر صحيح انه دخل الشام وللشعراء في بيت ليا اشعار كثيرة منها قول احمد بن منير الاطرابلسي :

سقاها وروى من التبرين الى النبتين وحمورية

الى بيت ليا الى برزة دلاح مكف كفة الاوعية

والنسبة اليها بتلعي ونسب اليها خلق كثير من اهل الرواية وقال ابو بكر الصنوبري :

أمر بدبرمرات فاحيا واجعل بيت لهوي يت لها
 وبرد غلتي بردى فسقيا لا يام على بردى وزعيا
 ولي في باب جبرون ظبا اعاطيها الهوى ظيباً فظليا
 ونعم الدار داريا ففيها حلال العيش حتى صار أريا
 سقت دنيا دمشق ليصطفها وليس يريد غير دمشق دنيا
 نفيس جدارل البلور فيها خلال حدائق يزين وشيا
 مظالمة فواكها بابعي الـ مناظر في نواصرها واهيا
 فمن نقاحة لم تعد خدأ ومن رمانة لم تحط ثديا

والظاهر من شعر ابن منبر والصنوبري ان بيت لها هذه والتي ذكرها الشعراء فاكثروا من ذكرها هي بيت لها الغوطة وبيت لها وادي التيم ومعنى بيت لها بيت الآلهة بالسريانية قال ياقوت بيت لها بكسر اللام وسكون الهاء ويا والف مقصورة كذا يتلفظ به والصحيح بيت الآلهة

ولم يذكر ياقوت وادي التيم في معجمه بل ذكر «بيرس» وقال انها اسم جبل بالشام يرادي التيم من دمشق واباه عنى عبد الله بن سليم بقوله : لمن الديار بشولم فيبوس قلنا وجبل بيرس هو الغالب فيها وراء الزبداني ومنه الآن قرية كفر بيرس وهو المعروف يرادي الحرير وورادي القرن والى هنا كان يتصل عمل وادي التيم وكان هذا الوادي في القرن الثامن^(١) من مملكة كرك نوح بالبقاع وله اقليم مع ما يضاف الى الوادي المذكور ثلثائة وستون قرية تعد من عمل دمشق

وزراعة وادي التيم ضعيفة واكثر قراه جبيلة على اكمة من الارض وربما كانت نفوسه نحو ٢٥ الف نسمة فقط اما طرقة فاصعب واوعر طرق ومياهه قليلة ومتوسطة الجودة بظمها ونفعها وقد تشع ايام القبط فيقاسي الاهلون منها شدة وعناء هذا وفي اليوم الثالث والعشرين من ايام رحلتنا ركبت ورفقي دابتين من راشيا فبعد ان اجتازنا سهل عيحا او مستنقع قرية عيحا دخلنا في وادي بككة وجزناه في ست ساعات الى التكية احدى محطات السكة الحديدية بين بيروت ودمشق وبالقرب من هذه المحطة شلال بردى يولد من الكهربية لمدينة القبيعا ومنهار كبة القطار عائدتين الى دمشق

(١) زبدة كشف الممالك لغرس الدين خليل بن شاهين الظاهري

ما ذا رأينا في رحلتنا

تحمداً في رحلتنا هذه من المشاق المختلفة ما لا نكاد نكابده بعضه لو طفتنا قارقي أوربا وامبركا وذلك رجاء ان نعود منها بفائدة نطلع عليها الامة والحكومة وها قد كتب لنا ذلك بقدر ما سمح الوقت فرأينا ان لا نقصر بحثنا على احوال البلاد الجغرافية والتاريخية والزراعية بل ان نتعداه الى البحث اجمالاً في شؤونها الاقتصادية والاجتماعية والادارية اول ما يقع عليه النظر ويسر تحقيقه الفؤاد انتشار اعلام الامن في الكور التي جئنا خلالها بعد ان كان السائح يخاطر بروحه وماله لو احب فيما مضى ان يعطوف تلك البلاد . والامن ولا شك حسنة من حسنات هذه الحكومة الدستورية التي نرجو بالعدل دوامها وبالمدينة الراقية احكامها ونظامها

يبد ان في هذه الكور قصوراً يلحق الاهلين وقصوراً يعود على الحكومة واهم ما نطالب به الحكومة بعد الامن احقاق الحق في البلدان الصغرى ليدوق الناس طعم الحكومة الحرة حقيقة لاننا لو نظرنا الى حال الاقضية نراها وحواضر الولايات والالوية سواء من هذا الوجه لا تنقطع شكوى الاهلين فيها . والشكوى طبيعية في الامم ومنهم الحق ومنها دون ذلك

لا جدال في ان العهد الدستوري قد ادخل في الادارة شيئاً من روح النظام شعر به في الجندية والشرطة والمالية من فروع الحكومة ولكن سائر الفروع لم تبرح محرومة منه مثال ذلك القضاء والافتاء في الاقضية فقد طفت سبعة منها اربعة من اعمال ولاية سورية وثلاثة من اعمال ولاية بيروت واني لاسمحي ان اقول ان ارباب هذه الوظائف الا النادر ممن عصمهم الله حرموا من العلم والمعرفة والنزاهة والعاطفة الوطنية فلا دين لهم الا اخذ الاموال من غير حلها ولا مشربة الا التلاعب بالاحكام الدينية والمدنية ولا هدي الا ما توحى اليهم عقولهم القاهرة واني لآسف ان يجلسون على بساط الشريعة المطهرة ورأى الجبل وقلة الامانة والصيانة ان يكونوا على نحو ما ذكرت . اذا عرفت هذا فقل معي غير هباب ولا وجل ان المشيخة الاسلامية لم تخرج في توسيد هذه الوظائف الشريفة عن الحد الذي كانت رسمته حكومة الاستبداد المطلقة اسبى انها في العهد الدستوري لم تأت بما تحمد عليه خدمة للشريعة والقانون

القاضي او النائب في الاقضية هو الكل في الكل وربما كانت وظيفته اهم من القائم مقام لان حكم هذا لا يجوز الا في الامور الادارية والسياسية اما الاول فاحكامه نناول

الاحكام المختلفة . فان كان ممن قلت تربيته ورق دينه والسواد الاعظم كذلك انت احكامه متناقضة مردولة فاسدة حشوها الدرهم والدينار وسداها ولحمها تلوث الفضة وتلون القلب والا وهو النادر كان داعية من دعاة الاصلاح ومثالاً من الكفاءة تشفعها الاخلاق الطاهرة

والسبب في هذا الهزال المضي الذي اصاب حكام الشريعة في هذه المملكة انه انت ادوار كان ينظر الى المناظر الخارجية سيف تولية القضاة لا الى كفاءتهم الشخصية فلم يتأهل اكثرهم لها باهمل ولم يخضعوا للنظام كما خضع سلك القائم مقامين مثلاً ولذا ترى في نفوس اكثر هؤلاء عفة وغيره ومعرفة ما لا ترى بعضه فيما انطوت عليه جوارح اولئك الذين انتبوا نباتاً طبيعياً ونالوا حق الصدر بالرشى والحباية وارتكبا ما تنكره الفضيلة وتأباه اصول الحكومات الراقية

كان احد كبار المصلحين في مصر يقول ان اصلاح الدين في الشرق اول كل اصلاح . وما اصلاح الدين في الحقيقة الا اصلاح عقول الفسائين بالدين كالتقضاء والمفاتي والحكام ولذلك كان من اهم الاعمال التي تمت في مصر على عهد نهضتها الاخيرة انشاء مدرسة القضاء الشرعي حتى لا يقل القضاء الشرعيون في علمهم ومداركهم عن القضاة النظاميين ويتعب الاولون في اعداد نفوسهم وملاكاتهم كما تعب الآخرون ويخلص الاسلام من الوصمات التي يصمه بها الجاهلون به ليقنوا ان الضعف اتي من المسلمين لا من الاسلام .

اما سائر موظفي الادارة في الاقضية فيرجعون على الجملة الى شيء من النظام وان كان يتدر فيهم العقبى الغزيرة بحيث لا تكاد تعد صالحاً واحداً منهم في كل عشرة طالحين ويكثر استئثار اقدمهم وبقل بحسب ذكائه وشجاعته فان كان على شيء منها وله من يحميه في حاضرة الولاية او عاصمة السلطنة من كبار الموظفين اغرق فيما اخذ نفسه به اي اغراق لان حاميهم يدفع عنه اذى اعدائه والا لاذ بالثقبه واهتمهم بالمرأعة والمصانعة والدهان لمن فوقه في المرتبة

هذا اجمال من حال حكومات الاقضية واصلاحها منوط في الاكثر بتعبين متصرفين وولاية من خبروا امور الادارة بانفسهم سنين طويلة وكانوا على جانب من العلم وحسن السياسة يحسنون لغة البلاد ويعرفون طبائعها حتى لا يكتفونوا آلة بابدي فئة مخصوصة من الناس لا يكتبون الا ما يملون عليهم ولا يعارضون الا فيما لم يارب خاص .

ومضى ادرت الحكومة على الموظف الصغير راتباً يكون على حد الكفاية وسأله عن عمله وراقبته في حركاته وسكناته فقل ان نظامنا الاداري دخله الاصلاح الحقيقي والافريقي نرصف في قيود الذل ونخبط على غير هدى .

كل من يقول في داخلية البلاد يرى عياناً رداءة الطرق وقلة اعمل العمران ولولا قليل من الهندسة دخلت في بناء الدور والمساكن والقرميد اللطيف الذي يزين سطوحها لا قسم من يرى تأخر هذه البلاد وما حثت بانها لم ترتق درجة واحدة في هذا القرن عن القرون الخوالي وانها كانت قبل الف والمئتي سنة اوسع عمراً وأكثر سكاناً مما هي اليوم .

الى الآن لا تجد طريقاً معبدة حتى بين البلدان المهمة فاذا كان الطريق الآخذ من بيروت فصيدا فصور فالبطية فمرجعيون لم يزل مشعكاً متداعياً بمد ان صرف على رصفه بضع عشرات من الوف الليرات فما هو الحال بطريق مرجعيون حاصباراثيا قطنا دمشق وطريق دمشق القنيطرة او قطنا القنيطرة بانياس وهي لم يصرف عليها شي وبقيت لا تصلح لمرور المواشي دع عنك الانسان

وبعد فان كنا لم نرصف طرفنا الى اليوم فأعي اعمال اخرى نرجى ان نقوم بها مثل جبر المياه من المحال البعيدة لسقيا الارضين وشغاه الاهلين او خزنها في خزانات وتجهيف البحيرات والمستنقعات مثل بطيحة سهل عيحا قرب ريشيا الوادي البالغة مساحتها نحو اربعة آلاف دونم وبطيحة دير العشائر في وادي التيم ايضاً وبطيحة الحولة ومستنقعات الجولان مما يؤذي صحة السكان ويؤخر عمران الارضين والبلدان .

ثم اين يد الحكومة في انهاض الزراعة من كبوتها باعطائها الاهلين السكك والادوات الزراعية والبذور والغراس التي تصلح وتجد في هذه الديار الطيبة بل اين يد الحكومة تعمل على الاقل على اقامة حفظ الحالة الحاضرة حتى لا تزيد البلاد خراباً فوق خرابها وان العين للنبي عن النظر الى جبالنا وآكلتنا الجرداء بعد ان علمنا انها كانت شجراً خضراء الى ما قبل عشرات من السنين واذا دمننا نوسعها القلع والقطع والحرق والشق فانراً على حراجنا السلام الاخير بعد بضعة اعوام .

بلاد تسمى لاعالة الملايين من البشر وتضيق عن عيش الالوف فتعقل فتعمرها حتى تقوم حاجزاً حصيناً في وجوه من يهاجرون من السور بين الى سائر قارات الارض ولا سيما الى اميركا الشمالية والجنوبية

كنا نظن ان الهجرة لم نناول سوى لبنان وما اهل به من الجبال لان الجليليين اتوا من غيرهم على تحمل المشاق وقلم النفس عن الراحة والزناهة ولان بلادهم قاحلة لا تخرج لهم على الجبله اكثر مما تخرج ولكن الامر على عكس هذا لان سكان السهول ايضا ممن يسهل عليهم الارتزاق من اراضيهم قد غادرونا الى ارض المهجر في طلب الرزق كانت الهجرة مقصورة على المسيحيين اولا فتمدت الى المسلمين سنيهم وشيعيهم والى الاسرائيليين والدروز والنصيرية والاسماعيلية وكانت لا تغطي لبنان الغربي ولبنان الشرقي فما قد امتدت اليوم حتى اخذت تشلب من سورية حتى سكان المدن المرفهين منها مثل اهل دمشق وحلب وبيروت وطرابلس وحيدا والقدس وتساوى ابناء هذا الوطن الواحد في مناداة مساقط رؤوسهم الى اعقاع اغنى فيها افراد ولم يزل عشرات الالوف سبي في فقر وفاقه

يهاجرون كل يوم بالعشرات حتى كادت بعض الاقاليم تخلو من شبانها كلهم فما هذا البوق الذي نفخ في سورية من غربها الى شرقها ومن شمالها الى جنوبها حتى اسمع الصم فكاد عدد المهاجرين من ابائنا يربو على ثلث مليون من الشبان العاملين وذل البنات عوانس في بيوت آبائهن والنساء معطلات عن التناسل حتى نشأت من ذلك مفساد في الاخلاق لا توازيها الارباح مما كثرت والامجاد مما استطلت وربت

قلت اليد العاملة بثقله الشبان في هذه الاقاليم حتى بقيت بعض الاراضي باثرة معطلة لقله من يقوم على تعيدها وتعذر على ارباب الاملاك ان يجدوا عملة لاعمال الزراعة ولو اغلوا لهم الاجور . وان اجرة البناء في وادي النجم لتبلغ الريالين ولا تجدد بناء لا يعمل واجرة العامل البسيط ثلاثة ارباع الريال وقلا تحصل على القدر الذي تريده من امثاله واجرة فاعل الحراث مع الفدان ريال ونصف وقد لا تجده ولم يكتف الناس هنا ببيع اراضيهم بل انت بعضهم في الحولة قلعوا بالالوف غراس النوت الجيد لانهم لا يظفرون ايام مواسم الحرير بالقدر اللازم من اليد العاملة التي تقوم عليه وآثروا ان يزرعوا اراضيهم ما امكن من القمح والشعير على غلات الحرير

كل هذا يجري في البلاد والحكومة لا تفكر في طريقة ناجعة تدفع عنها عوادي الهجرة التي كادت تشلب منها الروح . وان هذا القطر الشامي الذي لا يزيد نفوسه على ثلاثة ملايين ونصف ليعز عليه ان يفارقه نحو عشر سكانه الافوايا ولا يأنيه من المهاجرين الا الخاملون الذين قد تعطيلهم الحكومة ارضا فيبيعونها وسكة ومحراثا فيقتلون

عنهما بثن بخص وبذاراً فياً كلونه ثم ترام يتسولون وبنهم في شوارع البلاد موثرين الراحة مع القل الشديد على العناء مع العز الأكيد

ولقد لاحظنا في -ياحنا ان كل قرية او بلدة ليس فيها ولو بضعة من المسيحيين تكون الى الخمول والخراب اكثر من القرى التي بكثرتها فيها اناس من غير المسلمين وذلك لان جمهور المسلمين اتكلوا في الماضي على الحكومة لتعليم وتربيتهم فما استفادوا وهيئات ان يفتح قوم بمقدون رجاءهم بن يكيفون المعارف بحسب اهوائهم ولكن المسيحيين نشطوا من عقلم بعد حادثة الستين فتعلم ارثوذكسيهم في المدارس الروسية واليونانية وبابوهم في مدارس الفرنسيين والطلين وبرتانتينهم في مدارس الانكليز والاميركان والالمان وهكذا حتى جاء منهم جيل راقى في الجملة ارتفع عن مستوى الجيل الآخر مسلماً كان او درزياً او نصيرياً او اسماعيلياً

ومن الاسف ان القرية التي يبلغ سكانها المسلمون الفاً لا تجد لابنائهم مدرسة والقرية التي لا يتجاوز سكانها المئة مسيحي تشهد لم مدرسة ومدرستين كما لا تشهد للاولين جامعاً ولا مصلى وللآخرين الكنيسة والكنيستين ثم تجد التجارة بايدي المسيحيين يزيد غناهم كل يوم بتعاضدهم ومضائهم ويزيد اخوانهم المسلمون كل يوم فقراً بتفاسلهم وتكاسلهم نقول هذا ونحن على مثل البقين بان هذا القطر كسائر اقطار العالم لا ينهض الا بنهوض السواد الاعظم من اهله وهم هنا من المسلمين وان من اكبر دواعي الاسف ان يرحل عن هذا القطر اكثر ابائهم تعلقاً ومضاء وهم المسيحيون ولو رجعوا ورجع سائر مواطنهم على اختلاف مذاهبهم الى هذه الديار احروها واحيوها واضطروا الحكومة بعملهم ومطالبتهم المشروعة ان تفتح لهم الطرق وتعطيهم الامتيازات بالمشروعات العمرانية التي تعمد عليهم وعلى البلاد بالغير والناء ويكتفي بانها تخلصها من وطأة الاجنبي والدخيل فان من الكثرة قوة وكثرة العيال احدى اليسارين